

من كراتيبا إلى بونيس آيرس.

• د. بثينة شعبان •

حين نزلت في مدينة ساوباولو في البرازيل للمرة الأولى في حياتي شعرت من وجوه الناس وطبيعة حياتهم أنني أنقل بين شمسٍ وحمص وأنني أصبحت اليوم في مدينتي حمص لأتفقد أحوال الأهل والأحباب وانتابتي غربة ظريفة وقصيرة تساءلت لماذا لا يتحدثون العربية معي لأنني شعرت أنني وصلت مدينتي وأصبحت بين أهلي. ولم أكن أدرك قبل مغادرتي أن البرازيل تشكل عالماً غنياً من إرث الأباء والأجداد اللغوي والثقافي والحضاري والتاريخي وأنها سوف تقدّم لي أنموذجاً فريداً ورائداً عن مساهمة المرأة العربية في بناء الحضارات التي ساهمت في إشادتها في بلدان الاغتراب. ومنذ الأيام الأولى أخذ بعض الأبناء والأحفاد يقدمون لي هدايا من كتب الأدب العربي هي من أمهات الكتب، كتبت بلغة سلسة جميلة وبأسلوب فني راقٍ عزّ نظيره هذه الأيام واطلعت بعد ذلك على واقع الأدب العربي المبعثر هنا وهناك بحيث يعجز الأفراد عن إشادة المكتبات الواسعة التي يستحقها هذا الإرث الأدبي العظيم وأخذت الكنائس والمراكز الثقافية تشكو لي أنها دائماً تستلم صناديق من الكتب العربية النادرة لا تعرف ماذا تفعل بها وقد ضاق بها المكان وعجزت ميزانياتها عن

تحمل أعباء نقل هذه الكتب إلى موطنها الأم. من هنا بدأت أفكر بتشكيل لجنة قادرة لتوثيق وجمع التراث الأدبي الاغترابي والذي هو تراث هائل يشكل رافداً ثراً وأساسياً يكمل أوجه الثروة الحضارية التي شكلت دائماً الجزء الأعزّ من هويتها وتراثها.

وفي الكنائس والمساجد والنوادي تلتقي بشباب عرب يرشدون أنفسهم لمواقع هامة في البلديات والبرلمانات ويتوقون لتعلم كلمة عربية ويعلنون أن الدم العربي يسري في عروقهم. وكم فوجئت حين زرت المشفى السوري، اللبناني في ساوباولو والذي أسسته نساء سوريات لبنانيات في عام 1922 ولا تزال تقيم على إدارته وتطويره نساء سوريات ولبنانيات وقد أصبح اليوم أهم مشفى على الإطلاق في أمريكا الجنوبية برمتها وهو مدرسة طبية وأخلاقية وثقافية يعتمد على مبدأ التطوع والاهتمام بالروح وليس الجسد فقط ليكون بذلك تجسداً للثقافة العربية والطب العربي الأصيل الذي أهده العرب للإنسانية.

وفي النوادي السورية واللبنانية نكتشف أبعاد حضارتنا العربية التي سافرت في أصقاع الأرض فأشادت مؤسسات حضارية من مكاتب وملاعب وأماكن للتلاقح والتلاقي الاجتماعي والثقافي والسياسي فخلقت وحدة في الفكر والقلب بين العرب المقيمين على بعد آلاف الأميال من موطن آبائهم وأجدادهم ليؤسسوا بذلك لإرث ثقافي حضاري يعتبر جزءاً من حضارة البلد ويعطي قبساً جميلاً من حضارة هذه الأمة العربية التي أمسكت بقبضة من نور وأنارت للبشرية، حيثما ذهب، طريق الهدى والعدل والمساواة. ولا يستطيع المرء إلا أن يُعجب بهمة الأجداد الذين ذهبوا ورغم كل الصعوبات فتحو المدارس

لا لأبنائهم فقط وإنما لأبناء البلد الذين يقيمون فيه حرصاً على التمازج الثقافي الذي شكل وجهاً أساسياً من أوجه حياتهم في المغرب.

وتغنى شعراؤهم بأهل البلد وجمال أهل البلد تماماً كما تغنوا بالحنين إلى بلادهم الأم وأسسوا لعلاقات ممتازة مع الشعوب التي انتسبوا إليها بحيث يشعر أبنائهم اليوم بالفخر والاعتزاز أن يحملوا إرث الآباء والأجداد وساماً على صدورهم كي يستمروا في حملة البناء والانفتاح والتعايش الأخوي السليم.

وما تقدمه اليوم مجلة الآداب الأجنبية في هذا العدد ما هو إلا غيض من فيض من أدب يتوق إلى الأيادي الكريمة التي ستجمعه وتدرسه وتقضه وتضعه في مقامه الصحيح بالنسبة للأدب العربي تاريخياً، حاضراً ومستقبلاً. وكل ما نرجوه كاسرة تحرير لهذه المجلة هو أن نشير شهيدة القارئ كي يبحث في المكان الثرة الغنية للأدب العربي والكتاب المنحدرين من أصل عربي في تلك القارة البعيدة جغرافياً والقريبة من قلوب ملايين العرب لأسباب ثقافية وروحية واجتماعية وأدبية.

حين هاجر أجدادنا كانوا يهاجرون إلى المجهول ويمضون أشبهراً صعبة في البحار غير متأكدين أن الفحص الذي ينتظرهم على حافة الشاطئ سوف يعلن سلامتهم ويسمح لهم بالدخول أم أنه سيعيدهم من حيث أتوا بعد أن دفعوا الغالي والرخيص ثمناً لهذه الرحلة التي استبشروا بها خيراً. أما اليوم فلا تكلف أياً منا سوى أيام قليلة ليصل إلى ذلك المجال الخصب من الوشائج الثقافية والأخلاقية والدينية والسياسية وليستثمر به لما فيه خير الشعبين والبلدين. إن أدب العرب

في المهجرين أو أدب المتحدرين من أصل عربي هو مجال رحب
لدارسي الأدب اليوم وهو مجال لا تكتمل هوية الأمة الثقافية إلا بعد
استكمالها ولذا نأمل أن يلعب العرب المقيمون هنا والمنشرون في
الخارج دوراً أساسياً في إحياء و توثيق هذا الملف الغني والهام
والواعد.

والله ولي التوفيق



الأدب الأمريكي الإيبيري من أصل عربي

■ ترجمة : رفعت عطفة ■

شكّلت القارة الأمريكية منذ أواسط القرن التاسع عشر محطاً أنظار بعض العرب، الطامحين إلى الحرية والثروة، المتطلعين إلى حياة أفضل ومختلفة عما هي في المشرق العربي، الذي كان يسوده الفقر والجهل، وشكّل المتنوّرون من هؤلاء المهاجرين في المغتربات الأمريكية روابط ساهموا من خلالها في إبداع أدب جديد، أسامه الحنين إلى الأهل، والضيعة والمدينة والوطن الأصلي، وبرزت بينهم أسماء لاقت صداها الكبير على طرفي العالم، هناك في أمريكا حيث صوت الحنين والذكريات مسموع ومطلوب من المهاجرين أنفسهم وهنا شرقي المتوسط حيث التوق لسماع صوت الغائبين والحزن على غيابهم، الذي قد لا يكون هناك عودة منه. هذا الأدب الذي قرأناه هنا وحفظنا الكثير من أشعاره وخاصة إيليا أبي ماض والشاعر القروي، انتهى مع الجيل الثاني وفي حدوده القصوى مع الجيل الثالث، الذي راحت لغته العربية تقتصر على بعض المفردات التي بقيت تستعمل في المنزل وبين المغتربين ولا تتجاوز ما يشير منها إلى بعض الأطباق أو ما يتعلّق منها ببعض آيات القرآن الكريم بالنسبة للمسلمين منهم، وصار أبناء الجيل الثاني والثالث الذين نشأوا وترعرعوا في بيئة تلك البلاد، يقرؤون ويكتبون باللغة الأصلية للبلد الذي هاجروا إليه وهي دائماً الإنكليزية والأسبانية والبرتغالية. وحدث انقطاع كبير بين الوطن الأم والوطن الجديد، وما عاد الحنين مباشراً، لقد صار منقولاً ومسموعاً من الآباء أو الأجداد، والأدب الذي أنتجه هؤلاء الأبناء، لم يلقِ العناية الضرورية التي تجمع بين هؤلاء المغتربين وتربطهم بأوطانهم وأوطان أجدادهم، التي أشرنا إليها، كالرابطة القلمية والعصبة الأندلسية ورابطة مينرفا

والرابطة الأدبية وجامعة القلم، والتي كان من آخر تجلياتها فيآراب، التي اقتصر عملها على المؤتمرات والبيانات، التي تعبر عن تضامن هذه الجاليات مع القضايا العربية دون أن يرقى عملها حتى الآن، إلى مستوى التأثير على القرار السياسي في بلدانهم تجاه قضايانا العادلة، ذلك أن أول ما فعله الرئيس الأرجنتيني المتحدر من أصل سوري، كارلوس، منعم بعد نجاحه في الانتخابات وتسلمه لمنصبه هو أنه زار إسرائيل دون وطنه الأم سورية.

وإذا كان أبناء المهجر الأوائل، الذين كتبوا بالعربية، قد توجهوا في غالبيتهم إلى الشعر بنوعيه المنظوم والمنثور، فذلك لقدره هذا الجنس على التعبير عما يجول في النفس البشرية من مشاعر، فأبدعوا فيهما؛ مثل جورج صيدح وإيليا أبو ماضي والشاعر القروي وجبران خليل جبران وميخائيل نعيمة بينما لم تلق القصة والرواية وال مسرح إلا اهتمام القليلين، ولم يبرز منهم إلا عبد المسيح حداد وجبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وجورج حسن المعلوف وأنطوان شكور. وهذا مبرر، لأن القصة والرواية تحتاج إلى عالم معاش ولغة على قد هذا العالم، وهو ما لم يكن، حسب رأيي، متوفرًا لدى غالبية من كتب من هؤلاء.

ومن المؤسف أننا نجهل على هذا الطرف من الكرة الأرضية الكثير مما أبدعه ويبدعه أبناء جالياتنا باللغة الأسبانية والبرتغالية في الرواية والقصة والشعر والفكر، وذلك لأننا لم نتمكن من خلق روابط أكثر عمقا، تبقينا على تواصل حقيقي معهم. فقد افتصرت علاقاتنا معهم على علاقات أشبه ما تكون بالسياسية تظهر تجلياتها التضامن اللفظي ونشر البيانات في هذه المناسبة أو تلك. كان علينا أن ننشئ كليات للغات والأدب، ونخلق أطرا متخصصة بها وبالعالم التي أصبح ينتمي إليها هؤلاء المتحدرون من أصل عربي، أن نخلق جامعات مشتركة، تؤسس لعلاقات ثابتة ووثيقة ليس مع هؤلاء وحسب بل ومع بلدانهم أيضاً.

لكم شعرنا بالحزن حين قررنا أن تصدر عدداً جديداً خاصاً بالأدب الأمريكي اللاتيني من أصل عربي ولم نستطع الحصول على الحد الأدنى من المواد التي يمكن أن تجعل العدد أكثر غنىً ويعطي فكرة أوسع عن هذا الأدب. كلنا أمل أن نستطيع أن نخلق مؤسسات ثقافية واجتماعية وأن نستطيع أن نكون مكتبة أو مكتبات تضم كل ما يمكن الحصول عليه من إنتاج أبنائنا في القارة الأمريكية.



الهولوكوست الآخر

للشاعرة التشيلية

نور صالح أبو خنجر

■ ترجمة: مي رفعت عطفة ■

عن الإسبانية

مقدمة

على الطرف الآخر من العالم، لنا أبناء وأخوة يحملون مشاعرنا ويتألمون لألمنا، يكتبون بنسب السروح عذابات الفلسطيني وعذابات العرب. من هؤلاء شاعرة تشيلية شابة من أصل عربي، إنها نور صالح أبو خنجر التي تغوص في أعماق الألم الفلسطيني.

بدأت حياتها بكتابة القصص والقصائد حين شعرت أن روحها البرينة قد لامسها ظلم وجبروت قلة قليلة من البشر تظن أنها تملك الحق باسم الرب. إنها تكتب الطفل الفلسطيني الذي انتزع من براعته ليواجه عالماً بلا آمال.

هذه البراءة التي تنزف يوماً بيوم على أرض فلسطين قبل أن تعرف فك حروف الأبجدية وقبل أن تعرف اللعب وتتعم حب الشباب الأول. إنهم أبناء فلسطين، ضحية المحرقة التي يرتكبها اليهود الصهاينة بحق الفلسطينيين.

فلنور صالح التي تكتب نبضها — نبضنا وللقارئ الغربي نقدم أشعارها من ديوانها الذي يحمل عنوان الهولوكوست الآخر.

فاطمة وأنا

ماتت فاطمة.

عيناها السوداوان، الكبيرتان مغمضتان الآن
وأهدأها

الطويلة توحى بأنها ستفتحهما
بين لحظة وأخرى.

شعرها كان سابلًا، ناعماً، ويتساقط مثل مد
أسود غزير على كتفيها.

بشرتها المذهبة بالشمس، تعكس سنواتها الخمس عشرة،
لكن يديها بدتا لامرأة متقدمة في السن،
لأن العمل شوّههما وشققهما.

جسدها كان فوق السرير، بالوضعية ذاتها

التي ماتت عليها منذ ساعة عندما

اخترقت قذيفة إسرائيلية بحقد ملعون،

محطمة زجاج الغرفة، كي

تقيم في بطنها وتطفئ حياتها.

لم يكد والداها وأخوتها يشعرون

بالانفجار حتى هرعوا إلى غرفة فاطمة،

ووجدوها مستحمة بالدم.

أمها، وهي امرأة شابة، ذات وجه

حدده الضيق، ركعت بجانب

سريرها وعانقت بكل ما أوتيت من قوة
جسد ابنتها، وبللته
بدموعها.

صرخ الأب وسقط على ركبتيه، وغطى
وجهه بيديه، بينما أخوة فاطمة،
الصغار جداً، والرجال في آن معاً،
بكوا بنشيج لا نهاية له،
عندما فتحت فاطمة عينيها دُعرت،

لم تكن في سريرها كما اعتقدت ونظراً للغيوم
التي أحاطت بها أدركت أنها في السماء وأن القذيفة التي شعرت بها لم
تكن
كابوساً من الكوابيس الكثيرة التي كانت تعذبها،
بل كانت حقيقة.

السماء مكان غريب جداً — فكرت فاطمة
ما إن استعادت نفسها قليلاً من الخوف —
كل ما شاهدته كان كومة من

الغيوم القطنية، في كل الجهات. تفحصت
قدميها ولم تلاحظ شيئاً غريباً، تحسست ظهرها
ولم تكن هناك أجنحة كما يُفترض أن يكون للملائكة.
حاولت فاطمة أن تنتظر إلى الأسفل، جثت
فوق غيمة وقفت عليها ولم تر إلا مزيداً من الغيوم.

وسط ذلك "العدم"، ذلك المكان الغامض ومجرد
معرفتها بأنها ميتة، منحها رغبة
ملحة برؤية أمها، أبيها
وأخوتها؛ كان بؤسها أن تخبرهم أنها بخير،
أن لا يتعذبوا،... وأنها تحبهم كثيراً...
فجأة، ومن غيمة مكتنزة، خرج طفل
مجنح صغير، نظر إليها بحنان.
"مرحباً يا فاطمة، أهلاً بك في السماء!"
قال الطفل.

لم تجب فاطمة، كانت خائفة من الوقع الذي سيكون
لصوتها في ذلك المكان.
الطفل، مثله مثل غالبية الملائكة، كان يعرف
قراءة الأفكار، قال لها:

"أي! صوتك هنا ما زال هو نفسه،
لا تكوني جبانة — وأضاف — أنا ملاكك الحارس
وكنت معك دائماً".

نظرت فاطمة إليه بثبات، وبصعوبة استطاعت
أن تقول له: "مرحباً".

"عظيم — قال الملاك — الآن يجب أن
أخذك إلى مكان آخر".

لم تستطع فاطمة أن تشرح بنظرها عن ذلك الطفل

الذي قال إنه ملاكها الحارس، كانت الطفلة
مшоوشة، لم تتخيل أبداً أن السماء
وملاكها الحارس هكذا؛ في أعماقها
كانت خائبة، لأنها تصوّرت أنها ستستطيع
أن ترى من السماء كل بيوت العالم
وتعرف ماذا يفعل كل شخص. كما تصوّرت
أنه سيكون لها أجنحة كبيرة تحملها
بسرعة كبيرة عبر الغيوم، وإذا
أضفنا إلى ذلك أن ملاكها الحارس كان طوله أقل
من متر، لن يصعب علينا أن نتفهّم خيبتها.
"أعطني يدك — قال الطفل — ولا تقلقي،
فأنت لم تري الجنة حتى الآن، إنها حقاً
مكان جميل".

ابتسمت فاطمة وخافت قليلاً
من أن تُفكّر بشيء آخر، لأن ملاكها سيعرفه.
وهكذا أمسكت الشابة بيد الملاك، الذي
كانت بشرته أنعم من الحرير، ومعاً ارتقعا
سريعاً إلى السماء، التي كانت في كل مرة أكثر زرقة
وغيوماً.

"حاضر، نحن في المنزل" — قال الطفل.
نظرت فاطمة من بابه وشاهدت لوحة غيوم مائية

حقيقية ،
كلّ غيمة لها لون مختلف . كل شيء كان
رائعاً فعلاً ، كان هناك أيضاً
عدد لا متناه من الملائكة من كل الأعراق والأحجام ،
يمضون راكضين باندفاع يتبادلون الكلام .
"عزيزتي فاطمة ، الآن ونحن هنا ،
سأشرح لك ما يتوجب عليك فعله كي تصيري
ملاكاً".

"هل سأتمكن من رؤية عائلتي من جديد
إذا ما صرت ملاكاً؟" — سألت فاطمة .
"طبعاً ، ستتمكنين من أن تفعلي هذا وأكثر ، لكنني وبمراجعة كتاب
أعمالك ،
لاحظت أنني

لا أستطيع اصطحابك إلى حيث سان بدرو ، كي
يمنحك لقب الملاك ، أجنحتك ومهامك".
اتسمعت عينا فاطمة بفزع ، وشعرت
بحزن كبير ، هل كانت حقاً شقية ،
وأنهم لن يمنحوها بسبب ذلك لقب الملاك ،
بدا هذا لها غير عادل .
قال الملاك : "ليس لأنك كنت شقية ،
يا صديقتي".

ابْتَسَمَتْ فَاطِمَةُ. "مَاذَا يَنْقُصُنِي إِذَا؟"
يَنْقُصُكَ أَنْ تَوْضُحِي شُكُوكَ، فَتَقُلِ الشُّكُوكَ لِدِيكَ
يَعْرِقُ طَيْرَانَ الْمَلَائِكَةِ"
— وَأَضَافَ الْمَلَكُ بِجِدِّيَّةٍ أَكْثَرَ — "هَلْ مِنْ أَحَدٍ تَرِيدِينَ
التَّحَدَّثَ إِلَيْهِ؟، شَخْصٌ لَمْ تَسْتَطِيعِي
أُبْدَأُ التَّحَدَّثَ مَعَهُ وَتَرِيدِينَ ذَلِكَ؟"
فَكُرَّتْ فَاطِمَةُ بِالْأَمْرِ، فَكُرَّتْ بِهِ لَعْدَةً دَقَائِقَ
وَقَالَتْ بَعْدَهَا: "نَعَمْ، يَا مَلَائِكِي الصَّغِيرِ، أُرِيدُ التَّحَدَّثَ مَعَ
أَنَا فَرَانِكَ"
نَظَرَ إِلَيْهَا الْمَلَكُ مَنْدَهْشًا. عَلَى الرَّغْمِ مِنْ قُدْرَتِهِ
الْعَقْلِيَّةِ، مَا كَانَ لِيَتَخَيَّلَ رَدَّ
الشَّابَةِ.
"انْظُرِي، يَا فَاطِمَةُ، عِنْدَمَا تَمْضِينَ
بَعْضَ الْوَقْتِ تَتَعَلَّمُ الْمَلَائِكَةُ طَرِيقَةً لِلتَّوَاصُلِ الْعَقْلِيِّ.
وَأَنْتِ سَتَتَعَلَّمِينَهَا عِنْدَمَا يَمُرُّ عَلَيْكَ سَنُونَ كَثِيرَةٌ مِنَ التَّدْرِيبِ.
أَنَا مَلَائِكَةٌ مِنْذُ زَمَنٍ طَوِيلٍ، هِيَ
تَسْتَطِيعُ أَنْ تَفْهَمَكَ، لَكِنَّا لَنْ تَجِيبِيكَ،
عَلَى الْأَقْلَ بَلْغَتِكَ."
"لَا يَهْمُنِي، خُذْنِي إِلَيْهَا" — طَلَبَتْ فَاطِمَةُ
بِتَوَاضُعٍ.
وَهَكَذَا كَانَا وَكَأَنَّ الشَّابَةَ وَالْمَلَائِكَةَ

مضياً إلى مكانهم آخر من السماء الواسعة. عندما وصلا حيث
كانت الشابة جالسة فوق غيمة زرقاء، اختفى
الملاك الحارس، تاركاً فاطمة وحيدة
مع تلك الشابة الأخرى التي نظرت إليها بإمعان.
كان لـ أنا فرانك عيان سوداوان أيضاً، أنفٌ
ظريف وشعرٌ متموج. كانت الغيوم الزرقاء هي المفضلة
بالنسبة لها ولم تكن تنتظر زيارة لهذا المساء، ما جعلها
تدهش لرؤية تلك الفتاة، ذات النظرة
الكثيية والملاح العربية. وقفت فاطمة أمام أنا، وقدمت نفسها دون أن
تتردد
لحظة واحدة:
"مرحباً، اسمي فاطمة، لقد مت منذ
ساعات قليلة، لا أدري كم ساعة بالتحديد...
جئت لأنني أحتاج أن أصبح ملاكاً
كي أعطي بمن أحبهم، وبما أن عندي الكثير
من الأشياء التي تقلقني، فلن يمنحوني الأجحة
حتى أحلها".
"أعلم أنك لم تستطيعي أن تجيبي — تابعت
فاطمة — لكنني أريد أن أحكي لك بعض الأشياء فقط،
ليس بنييتي أن أزعجك أو أن أجعلك تستائين، فقط
أحتاج أن أتكلم مع يهودي!، ستعلمين لماذا

الآن، ونظراً لندرة اليهود في السماء
هذه الأيام... فكرت بك لأننا بطريقة أو أخرى
نتشابه وبما أنني قرأتُ مذكراتك، شعرت
بأنني أعرفك".
ابتسمت أنا، منذ مدة لم تسمع أحداً
وتلك الشابة بدت لطيفة.
"أنا من بلدة مباداة، أتعلمين؟، إنهم ينتزعون أرضنا منا،
يهدمون منازلنا، يقتلون
رجالنا، ونساعنا وأطفالنا بدون رحمة؛
يميزوننا ويعاملوننا كالزبالة..."
تهدت فاطمة عندما قالت هذه الجملة الأخيرة.
"دبابات وجنود في كل مكان، لا
نستطيع السير بحرية والماء، الضروري جداً،
هو بالنسبة إلينا، ترف، شيء غالي، بل وفوق ذلك غير نظيف.
فقد أجدادي كل شيء، كان عندهم حق
انترعه اليهود مدمرين المحصول كله،
قوتهم الوحيد. أعطونا بدلاً عن تلك
الأراضي الخصبة، قطعة أرض
وعرة وقاحلة وبما أن مجاري الأنهار
حُرِفَت لتغطي حاجة المستوطنات،
أقسم لك،

يا أنا، أنه كان معجزة من الله
أن نستطيع أن نزرع شيئاً. أترين يدي؟،
المسيهما..."

قربت أنا يديها وتحسست كم كانت
يدا فاطمة مجرحتين، ونظرت إليها حزينة.
"صارنا هكذا من خدش الأرض — أجابت
الشابة — وفي الوقت الذي كنا نجمع فيه المحصول، كان يظهر
جنود شبان ليسوا أكبر منك ومني سناً
ويقتلون محصول الذرة.

لا تعرفين كم كان يعاني والدي...
أمي ذكية وكانت تصنع لنا الخبز، لا أعلم
مم، وتبتسم قائلة بأن كل شيء سيزول، لكنني أظن، يا أنا
أنها في أعماقها، هي نفسها فقدت
الأمل. والآن وأنا لست معهم، لا
أريد أن أفكر كم يعانون".

وعند هذا القول اغرورقت عينا فاطمة،
لكنها تسلمت بالقوة وتابعت:
"عندي أخوان توأمان، إنهما طفلان

في الخامسة من عمرهما، لا نتصورى كم هما ظريفان
لكن لهما نظرة عجوز.
في المساء عندما كنت أرى الفتية يرشقون

دبابات الجنود بالحجارة ثم
أرى أولئك الجنود يطلقون النار أو يضربون
الفتيان بلا رحمة، حتى يتركوهم مرميين
بنزفون، كنتُ أخاف على أخويّ أن
يكبرا، لن أتحمل أن يرفع أحد يده عليهما.
أتعلمين؟ كل مرة كنتُ أرى فيها هؤلاء الفتية
مضروبين، أشعر كما لو أنهم يضربونني
أنا، لأنهم في الأعماق، دمي وأخوتي،
من أمهات أخريات نعم، لكنهم كبروا
في العجز واليؤس ذاته الذي كبرت فيه*.
كانت عينا أنا قد بللت بالدمع منذ يرهة، وجرّت
دمعةً على خديها البيضاءين.
"لا تبكي يا أنا، فقط أصغي إلي" — طلبت
منها فاطمة.

"أذكر أنك أنت أيضاً عانيت، عشت في
ملحق، محجوبة عن الشمس والأزهار
متحملة أولئك الكبار الذين لم يفهموك قط.
ومدركة ما يعانيه رفاقك بسبب
النازيين.

أنا لم أستطع أن أخبئي. عشت حياتي كلها
في سجن كبير، محاطة بالجنود وبالدبابات والكراهية،

لم يحك لي أحد ما جرى،
عشته بنفسه.

أتعلمين ما يؤلمني؟ يؤلمني أن أعرف
أن الصهاينة يستخدمون اسم الهولوكوست الذي
عانيت أنت ورفاقتك منه، كي يحجبوا عن العالم
أنهم النازيون الجدد. كما لو
أنهم يُذكرون الناس كل برهة كم عانى
أبناء اليهود ليُنزروا الجرائم التي يرتكبونها
ضد أهلي.

مذكراتك والكثير الكثير من الأفلام تُستخدم
وسيلة للتسويق، لثوقظ إحساس العالم.
لكن من يابه بما يفعلونه هم بأبناء شعبي؟

أين هي الأمم التي ملأت فاهها
بحقوق الإنسان؟ إنهم يتظاهرون بالصمم،
لا مبالون.

وأكثر من ذلك، يا أنا، يعاملوننا، كما لو أن هذا لا يكفي،
كإرهابيين، لمجرد أننا ندافع عن
ما هو لنا؛ عن الحرية، الحياة والأرض.
ويؤلمني أيضاً، لا تسميني فهمي من فضلك، أنهم يذكرونك،
أن موتك يُذكر دائماً وأن موت الكثير من الفتيان
الفلسطينيين، وأنا بينهم، لا يهم أحداً،

يزيد فقط رقماً، عدداً في إحصاء
القتلى.

هذا كل ما أريد قوله، لم أستطع أن أقول هذا
لأحد آخر، ففي بلدي، لا يمكن
أن ترفعي صوتك كي تطالبي بالعدالة، يُسكتونك
بالرصاص. بالرغم من أنه يبدو سخريّة، لكنني لم أكد
أقول شيئاً وقتلوني*.

عندما انتهت فاطمة من كلامها، عانقت
أنا فرانك، وفجأة سقط نورٌ قويٌّ جداً
على فاطمة، وخرج من ظهرها جناحان
جميلان، ناصعا البياض وصارت يداها
حريراً، بينما راح هذا النور ذاته يحملها
إلى مكان آخر من السماء، حيث من المحتمل
أن يسلموها مهمتها.

بينما كان شارون جالساً في مكتبه، شاهد
أحد كتبه يقذف سائلاً أحمر.

استاء، ونادى خدمه، مؤنباً
لأنهم لم ينظفوا الرف. أخرج الخدم
كل الكتب ولاحظوا أن كتاباً بعنوان
"مذكرات أنا فرانك"، هو

الذي لا يكف عن قذف ذلك السائل الأحمر، الشبيه بالدم،

كانت تعبيراً عن أن أحد ملائكة السماء
يبلغ أنه مستاء، لكن بالطبع، شارون
لم يفهم ذلك.

إرهايبة

عمري ثمانون عاماً ولم أرغب قط
أن أحكي عن حياتي، ربما لأنهم يعلموننا منذ
الصغر فضيلة التحفظ.

لكنني عازمة على أن أروي قصتي، لأنها
تشبه كثيراً قصة الناس في وطني،
أولئك الذين

ما عادوا يستطيعون أن يحكوا قصتهم.

ستسألون لماذا، وأنا في هذا العمر أبدأ
الكتابة، حسناً، ليس عندي أحفاد أقبلكم،
أعيش في هذا المأوى منذ أعوام ورفيقتي
الوحيدة هي وحدتي وذكرايتي.

قريباً ستحين الساعة التي سألتقي
فيها مع من أحبهم كثيراً، عندي أمل
أنه عندما سيدخل الممرضة غرفتي لتغمض
عينَي، ستجد هذا الدفتر وستقرؤه، أو سيقْرؤه

آخر، لا يهتم من يكون، لكن ما أرغب به هو
أن يعرف أحد ما، قصتي:

ما زلت أتذكر ذلك اليوم. أي امرأة تستطيع أن تنسى
اليوم الذي ولد فيه ابنها؟
كرمي لله يا جبرائيل، أخفض
سرعتك" — صرخت بزوجي بيأس
بينما كان يقّطني إلى المشفى في ذلك الصباح من
تشرين الثاني.

عجباً، يا امرأة، أنت تصرخين
من ألم المخاض وتطلبين أن أقود بتميل".
"إن ضغطت على الكوايح بهذا الشكل مرة أخرى، سيولد الطفل
ويخرج مقذوفاً من زجاج السيارة".
كانت ولادة صعبة، لكنها استحققت العناء؛ فالطفل،
كان سليماً، جميلاً، والأهم من ذلك، أنه
طفلاً.

قرّرت أنا وجبرائيل أن نسميه فؤاد، بعد
نقاشات شبيهة بتلك التي دارت بيننا
ونحن في الطريق إلى المشفى.

كنّا نعيش في منزل صغير في بيت جالا،

لم يكن لدينا أشياء كثيرة {لا أحد يستطيع أن يملكها
وهو تحت نير اليهودي}، لكننا كنا سعداء.

نشكر الله كل يوم

على قدرتنا على أن يُحبَّ بعضنا بعضاً. هذا ما
لا يستطيع اليهود ولا دباباتهم أن ينتزعوه منا.

في ذلك الوقت شعرت أنني امرأة قوية، ظننت

أنني الأقوى في العالم لأن عندي جبريل

وفؤاد معي. لكن عندما احتفلنا بعيد الميلاد

الخامس لابننا، كل

شيء تغيّر:

"سادية، ماذا نستطيع أن نهدى فؤاد؟"

ينقصه زوجان من الأجنحة" <http://Archivebeta.Sakina.com>

"إذا سأذهب إلى القدس الآن حالاً".

"حسناً" أجبت، بينما كنت أعدّ طعام

ذلك اليوم.

زوجي لم يصل على الغداء. منزعة اتصلت

بأصدقائه واحداً واحداً، لأعلم إن كان أحدهم

قد رآه،

لكن لا أحد كان يعلم شيئاً عنه.

فكرت: ربما كان عنده مشكلة،

وحاولت أن أهدئ نفسي، لكن الساعات راحت

تمضي.

عند الثامنة مساءً قرعوا بابي. كان جاراً.

لن أنسى تعبير وجهه أبداً حين

قال لي:

"شادية، نحن أسفون جداً، لكن قامت

مظاهرة فلسطينية في القدس، ثم جاء

الجنود اليهود ليفرقوا المتظاهرين،

فتحوا النار على كل من كان أمامهم. قتلوا

جبرائيل—

أنهى كلامه باكياً.

نظرتُ إليه ذاهلة، لا يمكن أن يكون صحيحاً. لا.

لا بد أنه أخطأ. همست: <http://Archivebeta.Sakhril.com>

ببساطة، بصوت لا يكاد يُسمع:

"هو لم يذهب إلى أية مظاهرة، لقد

أخطأت..."

وبينما انتهيت من قول هذه العبارة، أحضر

أهل البلدة جنّة جبرائيل إلى منزلي.

عندها فقط، أحسست كأنّ سيفاً

طعنني، ليس مرة واحدة وحسب، بل ألف

مرة.

شعرتُ بدموعي تجري مثل قطرات دم

تمتّزج بدم زوجي. أخذت يده بين يدي،
تلك اليد التي كانت
ملاذي وسلوأي، تلك اليد
التي كانت تحمل ابننا وتأتي بالخبز إلى البيت،
تلك اليد التي هي الآن باردة، بعيدة. أخذت
الحطّة الملطّخة بدم العنق وخبأتها.
كأعظم كنز في العالم. ستكون
يوماً ما هدية لأحد أعياد ميلاد ابني؛ هذه
الحطّة التي كانت تعكس حضور أبيه،
وطُبع عليها اسم فلسطين.
لم أستطع تفادي أن يري فؤاد أباه هكذا،
أطلق صرخة فحسب، وتعلّق بركبتيّ
بكل ما استطاعته يذاه الصغيرتان من قوّة.
بقينا هكذا، متعانقين برهة طويلة.
فؤاد لم يسلبوه والده فحسب، بل سلبوه أيضاً
الطفولة كلّها. بدأ يصير راشداً — طفلاً،
كغالبية الأطفال الفلسطينيين، الذين ما إن يفتحوا
عيونهم على العالم، حتّى يفتحوها على الألم،
على الذل
وعلى الموت، وتلك العيون الكبيرة ذاتها، المضيفة،
بأهدابها الصويلة،

سرعان ما يغمضها اليهود.
في عيد ميلاد فؤاد، سلمته
حطّة أبيه. لم أكن أخرجها من الدرج
أو أذكرها منذ ذلك اليوم، منذ عشر سنين.
نظر ولدي إلي وقال:
"أتظنين أن ألمانا سيسكن يوماً ما؟"
"أتظنين، يا أمي،
أن فلسطين ستكون حرة؟".
"أقسم لك بحياتي أنها ستكون هكذا. ربما
لن أشهد أنا استقلالنا، لكنني أمل أن تشهد
أنت
ورفاقك يوماً ما." — أجبته عائفتي
ولدي، ولم يعانق هذه المرة ركبتي، بل أسند رأسه
إلى قلبي.
اليهود لم يكفهم أنهم دمّروا
حياتهم، كان عليهم أن يقضوا عليها،
أن يدوسوا أرواحنا حتى يملبوها
آخر قطرة من الفرح {إن كان هناك شيء منه}،
لم يكن يكفهم أنهم يهدمون منازلنا، ويدمّرون
حقولنا {كما يفعلون
في هذه اللحظة ذاتها، بينما أنا أكتب هذا}.

و ذات صباح قتلوا مبرر وجودي الوحيد،
قتلوا فؤاد و قتلوا كل قوتي، قتلوا معه كل
ألمي بالجنس البشري.

توسلت الله ليالي أن يأخذني
أنا أيضاً. في كل مرة كنت أرى فيها جندياً يهودياً،
أتوسل إليه

أن يطلق النار علي، أظن أنهم لم
يفعلوا ذلك لأجل أن تحتضر روحي ببطء.
فكرت لسنين أنهم تركوني أعيش فقط

كي يتغذوا على ألمي وجراحي، أصبحت
أنهم يلتهمونني قليلاً قليلاً، وقطعة قطعة.
وصلت إلى أمريكا هاربة من ذكرياتي.

عملت سنين في دكان إحدى بنات بلدي
كانت قد جاءت قبلي بسنين، بالمال الذي
استطعت جمعه أدفع أجرة هذا المأوى،
حيث تُقضى أيامي. لا أستطيع أن أسامح،
كما لم أحاول ذلك. فقدت القدرة على الحب،
على البكاء أو على الضحك، أو على الأقل هذا
ما أعتقد. أشاهد

الأخبار كل ليلة تقريباً، مع رفيقاتي

في الغرفة وعندما أسمع أن: "الإرهابيين
الفلسطينيين قاموا بـ...."

أضحك في داخلي

إذ ما الذي يسمونه "إرهاباً": "أننا نقاتل

من أجل ما هو لنا؟ أننا نطالب بما هو عدل؟،

ترى ألسنا بشراً؟ ترى هل العالم

أعمى ولا يرى أنهم يقضون علينا؟

إذا كنت إرهابية لأنني أصرخ بالعالم أن أهني

يموتون. إذا كنت إرهابية لأنني أقاتل كي

يكون لأولادي طفولة ومستقبل. إذا

لا يهمني أن يدعوني إرهابية، بل وأكثر من ذلك،

فهذا يزيدني كبرياء. لكن ليكن واضحاً أن اليهود

ليسوا

هم الكائنات العادلة والعقلانية التي عليها أن

تتحمل "الإرهابيين المتوحشين في فلسطين"،

بل إننا نحن الفلسطينيون من علينا أن نتحمل

بالحجارة وبالدم وحشية

اليهود وأعمال النفاق المتكررة للصهيانية في

العالم.

كما قلت من قبل، أنا لن أسامح، لكنني أيضاً

لا ألوم الأطفال اليهود، فهم ضحايا بريئة
لكراهية آبائهم، الذين يعلمون أننا نحن
الفلسطينيين الإرهابيون، نحن من
يعتدي على "دولتهم" {الوهمية، وكل كلام آخر
زائد}.

عندما أصلي لله أدعو لجبرائيل وفؤاد،
كما أدعو لأجل الأطفال اليهود، كي
يفتحوا يوماً عيونهم على الحقيقة ويدركوا
من هم القتلة الحقيقيون.

هذا وليس عندي ما أضيفه،
فقط أريدهم ألا يكتبوا اسمي على شهادة قبري،
فما من أحد سيذكرني هنا،
فقط أريدهم أن يكتبوا: "هنا ترقد إرهابية،
وكانت إرهابية فقط لأنها قاتلت من أجل
حقوق بلدها: فلسطين".

هذا كل شيء.

انتحاري

أيها الطفل، يا الحافي القدمين
منذ أن وعيت وأنت ترى الجنود ذاتهم،

وتسمع النحيب ذاته،
ناسياً أنك أنت أيضاً تبكي.
لا تعرف معنى النوم الهادئ؛
فما أن تغمض عينيك حتى تطرق برائن الكراهية
نافذتك،
يُذكرونك أنه لا حق لك بالحلم،
بينما أزيز الرصاص يحكي في أذنك
كم من أبناء شعبك لا يطلع عليهم الصباح.
حين تستيقظ فجراً لتذهب إلى مدرستك
المرتجلة،
تمعن النظر بأبويك كي تتذكرهم
كما تتذكر لوحة في حال أنك لن تعود لتراهم.
الألعاب التي تعلمتها، علمك إياها الغبار والريح؛
رفاقك في اليأس، أطفال آخرون،
يحملون خوفك ذاته
بمضون ببطء،
عندما يرد الجنود على الحجارة بالنار،
بينما تظل تتساءل متى سيكون دورك،
حتى تستطيع العودة للعب معهم،
لكن بعيداً عن التسديد الدقيق للجندي،
بعيداً عن الجحيم.

إذا حالفك الحظ
ستدرك حجم الرجل،
وإن غدت روحك إذ ذاك
روح عجوز.
وسترى البؤس ذاته،
لصوص أرضك ذاتهم،
القساء ذاتهم،
يضحكون لانتحابك
المنافقين ذاتهم يقولون "سلام"
مخفين رغبتهم في الحرب
وسترى الحمقى ذاتهم
يصدّقون المنافقين ذاتهم،
القساء ذاتهم،
وحين ترى كل ذلك ويكون عليك
أن تتذكر كل الذين أحببت
مثل لوحة جامدة
حين تتسى رائحة شعر أمك،
ضحكات أخوتك، كلمات أبيك،
حين تدرك أنك لا تملك شيئاً،
وأن مجزرة شعبك لا قيمة لها بالنسبة للآخرين
وأنه سيبقى يولد أطفال بلا أحلام،

بلا نعال،
بلا بيت،
ستضع ديناميتاً في صدرك،
ستفجر لحملك ألف قطعة
مثل قطرات ماء
وستفجر نافورة دم
بينما العالم ينام تحت علامة الدولار
سيكره اسمك
سيقول إنك إرهابي فلسطيني آخر،
انتحاري،
كائن بلا مشاعر،
والناس لن يفهموا أن القنلة الإرهابيين
هم الذين يكرسون أنفسهم لقتل أمل روحك
اليومي.

سبعة آمال

لقد قتلوا سبعة آمال،
رأيت الجثة تمضي يرفعها رجال منسيون،
رأيت الرايات قد شكلت بحراً من دموع وألوان.
لماذا أخمدوا النور في عينيك؟

لماذا يحملون إلى القبر ضحكة طفولتك؟

لماذا لا تذكرك الأخبار الآن؟

ربما، لأنك فلسطينية

والذين لطخوا أيديهم بدمك

وبدم الكثير من الأبرياء،

يزعمون أنهم يحتمون فحسب

وأتساءل ممّ يحتمون؟

أتسبب نقاوتك الطفولية لهم الخوف؟

هل من الخطر أنك مثل وردة تكبرين و

لأجل ذلك يقطفونك؟

ربما يخافون أن تكوني سعيدة

فضحكة طفل فلسطيني ترعبيهم.

الرجال الذين يعيشون سجناء في وطنك

يحملونك بأيديهم

ليراك العالم تتأمين على علمنا، يحملونك كصرخة،

كضيق حين تعلمين أن هناك سبعة آمال

ميتة،

لكن من السماء،

سرسلينها حصّة من حلاوتك

ستعيدين القوة

للراية وللأيدي التي تحملك...

إلى الضفة الأخرى

رفع عينيه وقال لي: "احذر، أسكت أفكارك
أو سيقتضى عليك".

لا يعرف أنني لا أخافه،
أن تهديده ينعش ناراً قديمة فحسب،
موقداً سيبتد دائماً.

انظرني أيها القبيح،

ماذا يهمني،

نظرتك ستزيد من فخري فحسب،

تجعلني أرغب أن أصرخ فيك نعم،
إنني فلسطينية، لا أنت ولا أحد آخر سيستطيع
إسكات الحقيقة.

لن تستطيع أن تحمي نفسك،

تعلم جيداً أن أرضي لم تكن أبداً ببيتك،

أن هناك أمهات في الليالي يسمعون صرخات أبنائهم تتاديهن.

من فضلك، احفظ تهديداتك

لن تستطيع أن تحمي الدم عن أصابعك

لن تستطيع أن تقول أنك لم تفعل شيئاً،

تعال وانظرني أيها القبيح

عد وامرني بأن أصمت

لأصرخ مائة ألف مرة في وجهك،
حقيقةً إن كان ما يزال عندك ضمير،
لن يسمح لك بالنوم في الليالي.
ربما سيكون العالم كله مقتنعاً،
أنك كنت شهيد القرن؛
لكن لا تظن لأنك عانيت،
يحق اليوم لك أن تكون قاتلاً،
ولا تحاول إقناعي،
ولا تأتِ بضحكتك المناقضة،
ولا تحاول حتى أن تغلق فمي،
لأنني نعم
فلسطينية وانظري أنها القبيح،
لأنني لا أبه.

هكذا أنت

أنت الريح الحصيصة تحرك أوراق الأشجار،
تتعش وجوهاً أحرقتها الشمس،
أنت الماء الذي يغذي ويعيد الحياة للحقول.
بذاك قادرتان على مزج الماء بالطحين،
لنسكتنا الجوع،

بالطريقة ذاتها التي تحمل فيها هاتان اليدان الحجارة
لتهدي من عجزها.

عينك نجمتا أرض
تبرهنان أن الكمية ذاتها التي توجت بها بأنقى عذوبة،
تملؤهما شراسة

والألم ذاته الذي يتغلغل في صدرك كسهم حتى
يفرغ عروقه من الآمال
هذا الألم ذاته يسمو بك،

يكسوك بالبمسالة الأكثر سمواً
فما من شيء أسمى من أن نقاقل من أجل الأبناء

و من أجل الأرض. **ARCHIVE**
عندك كم من الحنين،
<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

من الآلام العتيقة،

ما يجعل فك لغز داخلك

وصفاً لعالم الأحلام

وفهم روحك هو فهم شعور
شعبك كله.

لن يسلبك كبرياءك أحد،

لن يستطيع أن يدنس أحد أسمك أبداً،

كما لن يستطيع أن يقول أحد للنور

أن قوة الليل هي الأقوى،

أنتِ محاربة،
أقوى من رصاص الجناء.
هل تستطيع الذل إن أراد أن يجرح كبريائك الذي صاغته القرون؟
هل تستطيع برد الرصاص أن يوقف قلبك، قلب الأم؟
هل تستطيع الكراهية القوية والقدرة أن تلطخ
ببياض مثلك الهفاهف؟
يا أم أجيال مضطهدة
يا ملاذ من عاش ينظر الهول،
في كل الطرق،
يا أم فلسطين النازفة،
مسعاك هو الأنبل
قضيتك،
قضيتك الجميع،
هي الأقدس.

رسالة فلسطين إلى اليهود

يستطيعون أن يخضعوا جسدي لأغلال النار
لكن قوتي ستبقى دائماً متقدة
في كل خلية من خلاياي، ألقها
سينبعث من مسامي.

يستطيعون أن يحبسوا فكري بين أربع حيطان،
لكنّ خيالي سيطير مع الريح
كي يجعل أوراق الأشجار تنساقط في الخريف.
يستطيعون أن يقتلعوا عيني، لكن نوري الداخلي
سيريني وستصبح الألوان أكثر حيوية.
يستطيعون أن يسلبوني أرضي، لكن الثمار
ستفقد حلاوتها التي كانت لها عندما
كانت أيدي أبنائي الطاهرة هي التي تجنيها.
يستطيعون أن يسلبوني أبنائي ويُمنحوني
بدمهم البريء، لكنني سأنجب دائماً مزيداً من الأبناء يصرخون
بأسماء إخوتهم القتلى في وجه العالم.
يستطيعون منع الماء عني، يستطيعون سلب الخبز مني،
لكنني سأقتات بحجارتني وسأشربُ ترابي.
يستطيعون أن يبتغوا محو الحقيقة إن أرادوا، يستطيعون أن يشوهوا
كما لو كانوا ملائكة، يستطيعون أن يلعبوا بأيديهم
القذرة فيزيّنون "أعمالهم".
مثلّ دمي من طين ويستطيعون بعدها أن يحصلوا على المال،
كي يحجبوا بقماش أسود جرائمهم.
يستطيعون أن يدسونني، أن يحرمني فرح ضحكات
الطفولة وأن يستبدلوا بصراخ الأمهات.
لكن ستظل هناك قوة جامحة

في روح أبنائي المتبقيين.

من أين أنت؟

قالت لي أمي:

"قوتك جاءت في زورق منذ أكثر من ثمانين سنة،
أحضرها آباء أجدادك محملة برائحة البحر والمعكرونة
وتركوها لك كهدية يوم مولدك".

وبدأت أفكر؛

"من أين يأتي أهلي بالقوة؟"

لأن من الصعب استيعاب

كيف يسمو الشعب الفلسطيني أبياً وسط الخوف في هذا الجحيم،
مدافعاً عن نفسه.

أظن أنهم يستمدونها من حب لأرضهم،

من معرفتهم أنها لهم،

مثلما الثلج للجبل،

والدم للعروق.

ربما تأتي القوة من مقاومة الجمل،

الذي يسير بلا تعب في وحشة الصحراء،

أو ربما تأتي القوة من السماء،
من أرواح من مات دفاعاً عن ما هو لنا.
أو ربما تستمد القوة من هشاشة طفل،
ما زالت تعلو وجهه ابتسامة.
ولكي أقول الحقيقة،
لا أعلم من أين تستمد القوة.
فقط أعلم أن قوتي جاءت في سفينة،
منذ أكثر من ثمانين سنة،
وأنها تكبر بالإيقاع ذاته
الذي نباد فيه.
لذلك أحذرك
من قوتنا، فاحذر. <http://Archivebeta.Sakhril.com>

حائط المبكى

نقضي الحياة لاطماً رأسك بجدار من حجارة،
ومن لديه صليب معلق حرياً به أن يخبئه
لا تشعر بالإهانة.
هل أقول لك ما الذي يجب أن يبكيك؟
إن نظرتك تسمم
وهالك يشتري الضمائر

إنك شجرة متعفنة،
وجذورك تمتص البراءة.
هيا ابك الجوع الذي يسببه الطعام الذي لم تحصده قط وانتزعه من
آخر؛
ابك العطش، الماء الذي سرقته منا.
ابك الحنظل يجري في عروقك
وأن لك يدي قاتل
وضميراً كضمير الضبع.
قالوا لي ألا أكرهك؛
وأن هذا سيرفعني إلى مستواك
لكن المشاعر أمواج تصل الشاطئ دائماً؛
ولي الحق ألا أجل القاتل،
المُعذَّب، لإنسان الذي يؤنبه ضميره.
أريدك أن تبكي، لكن لأجل ما تفعله اليوم،
وإذا كنت لا تستطيع فأساعدك،
سأمسك بعنقك
وأضرب رأسك بحجارة جدارك،
عسى أن يتحرك خبتك قليلاً
عسى أن تستيقظ
إذا ما لاحظت أن حقوقي هي حقوقك ذاتها،
وأنا في بيتي، زائر.

أذركُ لماذا تزعجك الصليبان على الصدور،
فالمسألة أنه يغيظك أن يقول أحدُ حقيقة،
حقيقة ليست حقيقتك.

حين قال المسيح جميعنا سواسية،
أعلن عليك الحرب،

لأنك تظن أنك نور والبقية بهائم.
ولأنك تكره أنقى الحب، تمقته،

وتمقت ابتسامة طفل فلسطيني،

نقول إنك تريد سلاماً، ثم تعيد الحرب

معادتك ودولاراتك نُكْبَلُ كل ما تجده في طريقها

والناس يقولون عنا "إرهابيين"، دون أن يعرفوا شيئاً

بينما لا أحد يصرخ بك يا قاتل،

لا أحد يبصق في وجهك.

سأرافقك إلى جدارك، عندك كثير مما ستبكيه

إذا احتجت لمساعدتي

سأمسك بعنقك بيدي وأساعدك على أن تلطم رأسك

إذا كنت فعلاً تبكي ما تفعل،

ها أنا ذا هنا كي أحاورك

لكنك إذا كنت ستمارس سيركاً من سيركائك فتذكر

أن يدي كبيرتان وأن مقاومتي هي قوتي

وأن جدارك قاس وبارد.

الغز

لم أرَ عيونهم من قبل، لكنني كنتُ أعلم، بشكلٍ سرّي، كيف تبرق،
لم أسمع أصواتهم من قبل،
لكنها معروفة لدي.

فجأة أعلم أنني أحببتهم،
وأنّ خيطاً خفياً، مرناً، أبدياً،
يجمعنا، يوحدنا.

أحسست أنني جزء منهم،
وأنا جزء من شعب واحد،

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhrif.com>

أنا المدعوون لمقاتلة
الظلم ذاته،

لأنّ أجدادنا قدموا أشكالاً

لقطع مختلفة، للغز واحد؛

وعندما يبدو أنّ هذه القطع تتلاقى، تتوافق

يقيمون احتفالاً في السماء.

نعرف بعضنا منذ الأزل،

عندما يتلاقى الشباب

في الزوايا المغبرة،

فإنّ بعضاً منا يلتقي ثانية،

في رمية كل حجرة،

جزء من قوتنا هي التي تضرب، قوة حية،
كثيراً ما تكون نائمة،
أو مموتة باللامبالاة.
في أيدينا مستقبل تلك الأرض،
مستقبل أولئك الشبان الذين يلتقون
في الزوايا المغيرة،
أولئك الذين من تعبهم من البكاء يقذفون الحجارة،
وعليها أن نقاتل من أجل الرجال والنساء
الذين ربما كانوا آبائنا
من أجل الشيوخ الذين ربما كانوا أجدادنا
لولا السفن التي جاءت بأبائنا إلى أراضٍ أخرى كثيرة،
لكن معهم جاءت الروح <http://Archivebeta.Sakhr.it>
وذلك الخيط الخفي مع المادة الخام لنصنع قطعاً
من اللغز الكبير ذاته.

أزهار

الأزهار الأرجوانية، البيضاء والصفراء،
التي بقيت نائمة كأغصانٍ عارية
طوال الشتاء،
استيقظت واختالت فوق أرضٍ جافة،

بطريقة سحرية،
مفعمة بالغموض.
الهواء ينقل ألحان قيثارة
والطيور التي تشق السماء
ترتل اللحن ذاته.
وهناك، بعيد جداً، حيث لا يوجد أزهار،
يسمع أيضاً لحن،
لكنه يجرح الهواء،
حيث طيور الفولاذ وحدها تردده.
وفي الليل
تشاهد أضواء وتسمع انفجارات،
وفي النهار تشاهد أرتال وأرتال من النيشر،
ينتظرون طبقاً من الطعام،
بنظرة هائمة في مطلق الفجيرة
في سخرية الحياة.
هم الكائنات الحية
ضيعوا أحلامها،
لأنها استبدلت بالنحيب.
يبدو أنه ما من أحد يفهم أنه بالقتل
لا يجنى إلا مزيداً من القتل؛
لماذا القتل إذاً؟

فالقتل لا يُسكن الألم،
فما يمسُ شخصاً يمسنا جميعاً.
فأيّ جبان يستطيع أن يُطلق صاروخاً،
لكن الشجعان الذين يحبون قليلون.
من السهل أن تضرب
أن تبتر
أن تدمر
لكن كم من الصعب أن تلاطف
عندما لا تحب.
ما طعم الحياة إذا لم نحب؟
جميعنا مختلفون،
لكننا جميعاً متساوون؛
نستشق الأوكسجين ذاته،
ودمنا الدم الأحمر ذاته
وجميعنا سننتهي منصهرين بهذه الأرض،
وسنصبح السماد ذاته
للأزهار ذاتها.

الحطة

جاعت من فلسطين في كيسٍ شفاف،

داخل حَقِيبة أبي.
مطرزة بالدم ولها وزن ريشة بيضاء.
إنها قطعة من قماش ولا تطمح لتكون شيئاً آخر،
لكن معناها أقوى من الريح،
هي مثلها تجلب عبق الذكريات.
خبأتها في خزانتي واعتقدت مثل كثيرين آخرين
أنها مجرد منديل.

لكنني اكتشفت أنها أكثر من ذلك بكثير.
تبيّن أنني أنتمي إلى سلالة من الشهداء،
من التقاليد والسفن.

ARCHIVE

<http://Archive.org>

لونها
يذكرني بدم من رجلوا ولن يعودوا أبداً،
كل خيط فيها يحكي قصة،
قصة من لا صوت لهم،

من عليهم كي يرفعوه
أن يغمضوا أعينهم.
بعد أن فكرت بفلسطين
أشعر بأن قطعة القماش
التي أخبئتها في درج خزانتي،
أنها، إن لم تكن رائتي
فهي هويتي.

اليوم

تُسمع الضحكات من كل صوب،

ضحكات عصبية،

ناسٌ يضحكون من فراغهم الذاتي.

وفي المذباغ تُبثُّ أغنية،

بينما، هناك، بعيداً،

لا يوجد ضحكات.

هناك أضواء ملوثة ما إن تصل إلى الأرض

حتى تقتل كل شيء حي،

هناك صواريخ تشق سماء جريئة

منذ زمن بعيد. <http://Archivebeta.Sakhrit.com>

هناك أطفال بلا أمهات، أمهات بلا أطفال،

وناس لا يتقاسمون غير الألم لأنه

مقدر عليهم أن يعيشوا الاضطهاد،

بسبب من يقولون إنهم عادلون

ويظنون أنهم مقدسون.

حرقه بطون الصغار،

تحترق ببطء حتى ينتصر الجوع

ويحل الموت.

يرحلون كما جاؤوا.

مهدهم الحجارة

ومستقبلهم العدم.

وتستمر الحياة،

وتفرض الحقيقة نفسها،

وتهزمنا اللامبالاة

والمادية السقيمة،

ملك قلوب البشر،

تتبت مثل وردة سوداء.

فقدنا بريق العيون.

وحدها الاعتبار الزائفة ظمغ.

فقدنا القدرة على أن نهدي إبتسامة

ولا نرى أبعد من أنفنا.

تستمر الضحكة العصبية،

ولا أحد يطالب بوقف الأضواء التي تقتل،

العجرفة التي تبديد،

ونبدو للأبرياء الذين لا نراهم،

للأطفال الذين لا يعنون لنا شيئاً،

مثل كومة من علب صفيح فارغة!

لقد ماتت الطفولة

لقد ماتت الطفولة فيك، يا بني.
لا أعلم ما الذي تغير في عينيك
ولا من أخذ لعبك
ما أعلمه هو أن طفولتك قد ماتت
تعيش على رؤية الذعر في الوجوه،
في مدرستك؛

بناءً مثقّب من جين،
لا تستطيع أن تصوغك في العلوم.
تتعلم صنعة من لا يملك شيئاً،
من لا ينتظر شيئاً.
ARCHIVE
<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

تري أمك
وصورة أخيك الميت محفورة في وجهها.
مثل وشم،
تراها منحنية تصنع
خبزاً من فئات متبقية.

لقد ماتت الطفولة فيك، يا ولدي.
تعتني بأخوتك الصغار الطلّقين

كالريح،
وتراهم صغاراً
بجانب جدار المبكى.
أرضك مبتورة
وألما يملئ صدرك،
رماح وسائدك
وفي المساءات تسمع دوي القصف.

لقد ماتت الطفولة، يا بني.
أبوك بلا عمل ولا مال،
يجلس في المساءات الصفرى،
بجانب باب هو اليوم بيتك،
لأنك لا تعلم
ماذا سيحل به في الغد.

بودي أن آخذ بيدك
وأريك سماء بلا غيوم،
حديقة مليئة بالأزهار،
فيها نهر صغير صاخب كضحكتك،
أن أمنحك مستقبلاً، أو على الأقل أن أضمن لك
أن الصبح سيطلع غداً على الجميع،

أن لا نتلقى رصاصة،

بل ملاطفة.

لقد ماتت الطفولة فيك، يا بني.

وأنا... أنا لم أفعل شيئاً لإعادتها إليك.

ذنبى

وضعت المتفجرات، بملاصقة بشرتك،

مثل أعلى كنز،

مبتغياً أن تنسى كل شيء،

أن تطفى النار التي تحرقك منذ سنين،

تفكر أنه ربما سيُسمع دمك

ما دام صوتك لا يُسمع.

جراح شعبك،

أنظف قليلاً،

أكثر اندمالاً بقليل.

وأصابع الموت الباردة،

على حنجرتك الطرية،

يبدو لك أحلى من أزيز الرصاص،

الرصاص الذي يطفى حيوات،

الرصاص الذي لا أحد يُسكته.

تريد أن تغمض عينيك كي لا ترى مزيداً من البؤس،
من الأسئلة المتجمدة في الوجوه،
ومن آثار تمزق كل تلك الأرواح.

كيلا تعود وتسمع صوتك الداخلي
الشكوك التي لا تنقطع،
الأحلام لم توجد قط،

لأنهم ألقوا بحكمهم في وجهك،
أعلنوك مذنباً

ARCHIVE
<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

لأنك ابن الانتفاضة
لأنك ابن امرأة كبيرة العينين،
لأنك ابن أب دافئ النظرة.

يتهمونك بأنك عربي
بأنك خلقت باسم وسط العدم،
بأن قدميك قويتان،
ودمك نقي،
وروحك بيضاء.

ولنا أيضاً أدنتك،

صمتي هو جزء من الحكم عليك،
لا مبالاتي هي قرحتك.

لماذا لا أصرخ باسمك للصم؟
لماذا لا أذكرك في كل صلاة من صلواتي؟
كيف أستطيع أن أنام بين الملاحف البيضاء،
بينما تنام أنت على الحجارة،
بينما الغم وسادتك؟

اليوم، عثرت عليك الكلابُ المسعورة،

أخذوا جسك وحبسوه في قفص.
غبار السحر لم يعمل،
دمك لن يصرخ بشيء،

الموت سيصل قريباً،
أو ربما خطوه المثلث ليس محسوساً،

بين الجدران،

في الإسمنت البارد،

في معاملة الكلاب

في حفرة النسيان.

وما عساي فاعل باسمك؟

تُرى ألن يستطيع دمي أن يصرخ كما دمك؟

لماذا لا أقول اسمك؟
لماذا لا أذكر حقوقك؟
لماذا صمتي أصبح شريك الكلاب؟
وهذا الصمت يقتلني.
ضميري سيصير الخنجر
سيشقّ جرحي، يُذبل روحي.

لم ينتبه

نظرته لامعة وعميقة
تشي بأنّ أجداده أصحاب أراضٍ رملية
أنفه يُحدّد وجهه، والتجاعيد بدأت تشقّ جبينه.
دهون ومحاشي الأحاد،
تراكمت في خصره،
شدها يرتسمان في الوقت الذي يُراكم فيه
أوراقه النقدية،
التي جمعها بعرق جبينه من أجل
الموتى
والأحياء
والجندل
له شركته الخاصة، يعمل شاقاً،

ويشكو سواء ربح أو خسر.

جاء أبواه من هناك، من مكان قصي،

بحقبة مليئة بالأحلام،

عاشا هنا يفكران بالأرض التي غادروها،

بالناس الذين عاشا بينهم

عاشا يسمعان من يناديهما تركيين*

وماتا آملين أن يعودا ليوطاً أرضاً

عشقتهما روحهما



ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

هو يشاهد الأخبار، يعرف

كم قتلوا،

يعرف أن دماً بريئاً يسفك.

ويرى على الشاشة أطفالاً مبتورين

يعرف ما المسألة،

يعرف ما يجري، لكن عندما تنتهي الأخبار،

يُطْفئ التلفاز ويمضي.

يتذكر أنه ينتمي إلى الرجال

الذين يعتمرون الحطة،

مرة في الأسبوع عندما يدعوه أصدقائه في النادي.

حتى الآن لم ينتبه إلى أن الدم ذاته
الذي يجري في عروقه،
هو الدم الذي يُسفك.
لا يستطيع أن يرى أنه ملتزم بتلك الأرض،
وأن سفينته أنقذت والديه
من المصير الذي ينتظر الفلسطينيين:
الحرمان من الحرية،
رؤية الأبناء يموتون ببطء،
في البداية بالأمل، بعدها بالقوة
ثم بالقنابل.



هو لا يستطيع أن يعطي قطعة نقدية للقضية،
لكنه يستطيع أن يشتري مزرعة بمنزل كبير،
لا يستطيع أن يرفع صوته عندما
ينادوننا إرهابيين،
لكنه يستطيع أن يزأر عندما يخدعه مرابوه.

لا يريد أن ينتبه إلى أن ذلك الطفل الحزين
الذي يرفع الحجارة
يشبه ابنه، حفيده ويشبهه.
لذلك، عندما يشاهد الأخبار يقول: يا للأسف،

بعد ذلك يستعرض المحطات ثم ينام،
فعليه أن ينهض باكراً،
سيذهب في اليوم التالي إلى النادي وسيعتمر الحطة
التي يحفظها في كيس عتيق،
وتحمل رائحة سفينة.

أفكر فيك

كل شيء سيكون سهلاً لو أنني لا أحبك.
يمكن أن أفتح النافذة وأرى النور،
دون أن أفكر كيف أصبحت.
يمكن أن أفكر في مستقبلي،
دون أن أتذكر أن مستقبلك هو أن تستنشق الغبار،
أن تنتظر أن يأكلك الألم من الداخل.

يمكن أن أستيقظ سعيدة،
بكل ما أملك من جميل.
لكن مخيمك وبؤسه يرد إلى ذهني مثل موجة كبيرة،
تقطع أحلامك.

لا أعلم إن كان حبي لك مستعاراً،

إن كان صاغته نار أبوي ذاتها
نار أجدادي ذاتها.

لا أعرف غير أنني أحبك،
وأنني أبكي بصمت، سرّاً معك
في داخلي.

أود لو أنسى وجهك
لكنتي لا أستطيع.
نظرتك تداهمني في الليالي
فلا أنام.



حين تمتلئ يداي
أفكر بيديك،
الفارغتين
منذ زمن بعيد.

ومن المضحك أن أفكر،
أنك وعلى الرغم من كل شيء،
تملك القوة لتقاتل في أعماقك،
بينما أنا،

تحرقتني المرارة،
مثل أسوأ الحرائق.

لا مناص من حبك،

فنحن جُبلنا من الطينة ذاتها،
وأعجب بما تمثله،
لأنني لا شيء بجانبك.

أخاف أنا أحبك كثيراً،
لكنني مرعوبة من أن أحبك قليلاً،
لأن من يحب ولا يصنع
شيئاً من أجل من يحب
أنزل الأوغاد.

امنحني قليلاً من شجاعتك،
نقطة من رفقك،
كي أصرخ،
مهما كان حجم حبي لك،
باسمك،

كي أصرخ بنحبيك
كي أصرخ بحريرتك
ويسمعونني حتى على القمر.

فراغ

كنت أفكر بمعنى أن أشعر بنفسي فارغاً،

أشعر أن لا أحد يفهمك،
أن حياتك عقاب.
كنت أفكر بمعنى
أن أكون فلسطينياً،
واكتشفت أن لا علاقة لذلك بالدم
أو بالأرض التي ولدت فيها.
لا أستطيع أن يكون لي ألم شعبي،
المضطهد، لكنني أستطيع أن أشعر به،
لأنني عندما أرى ذلك الطفل،
الذي ينام بين أقمطة دمه
وعينيه البلوريتين؛
أدرك معنى أن يشعر المرء بنفسه فارغاً.
كما لو أن الروح التي يمكن أن تؤوي الكثير من الألم،
تتفجر في لحظة.
وشظاياها في الهواء، لا يفهمها أحد.
فأن تكون فلسطينياً يعني أن تعيش دون أن يفهمك الآخرون،
أن تراقب من خلف النوافذ لترى الحرية تصل،
بينما الأوغاد لا يتوقفون عن إطلاق النار.
أن تكون فلسطينياً يعني أن تكون موثق اليدين وأن يكون على القدمين
والفم خاتم المأساة،

بينما يجلس آخر على طاولتي.

لكنني بالتفكير أكثر قليلاً،
استطعت أن أفهم،
أنّ جسداً مبتوراً وعيوناً قليلة جفت دموعها،
تستطيع أن ترفع أيديها كي تُحارب،
وأنّ شفاهاً ما زالت مكومة،
تستطيع أن تزمجر مثل غناءٍ وحيد،
غناء يُبشرُ بالنصر،
ينزع منا الفراغ.



تجلسين على الأرض المُعبّرة،
بجانب أطفال وطفلات آخرين،
يأكلون خبزَ الفقر ذاته،
لديهم بدل الدفاتر حفاتٌ من ترابٍ وحجارة.
تنقصهم جميعاً دغدغة أمّ
ومباركاتها قبل الذهاب إلى النوم.
إنك عجوز مصغرة.

مَرْقُ الوَاقِعْ نَسِيحَ طِفْلُوكْ البَضْ؛
دون اعتبَار،
بل دون حَتَّى أَنْ يَدْعُوكْ تَقُولِينَ ودَاعاً لدمية خرقك،
كما لم يَدْعُوكْ تَقُولِينَ ودَاعاً لَمَنْزَلِكْ،
قَبْلَ أَنْ تَصِلَ الدِّبَابَةُ.

ما من راشدٍ يَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يَشْرَحَ لَكَ
الكَلِمَاتِ الصَّعْبَةَ.

وعلى الرغم من أَنَّكَ صَغِيرَةٌ،
تَعْلَمِينَ جَيِّداً مَعْنَى أَنْ يَكُونَ الْمَرْءُ فِلَسْطِينِيًّا.

تَعْلَمِينَ أَنَّكَ أَمِيرَةُ الْغَيَارِ،
الْأَمِيرَةُ الْمُنْسِيَّةُ
<http://Archivebeta.Sakhril.com>

مَمَّنْ يَقُولُونَ بِالْدِفَاعِ عَنْ مَمْلَكَتِكَ؛
وردة بريّة نَبَتَتْ فِي قَلْبِ الْحَجَرِ،
تَمْدِينِ بِثَلَاثِكَ الْبِضَّةِ نَحْوَ الشَّمْسِ،
رَغْمَ أَنْ حِذَاءَ جَنْدِي يَدُوسُكَ.
فَلَنْ يَسْتَطِيعَ أَنْ يَطْفِئَ
لُوناً وَاحِداً مِنْ أَلْوَانِكَ الْأَرْبَعَةِ.
كَثِيرُونَ يَرْفَعُونَ صَوْتَهُمْ مَدَافِعِينَ عَنِ الطِّفْلَةِ الْمَضْطَهْدَةِ،
وَيَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمُ النَّتَّةُ كَلِمَاتُ كَالْحَبِّ،

كالعدل، ومع ذلك،
فلا أحد يقول شيئاً
عن الأميرة المنسية.
وعندما يقتل الأوغادُ رفاقَ بؤسك الصغار
يصمت الناس.
ليكفوا، فلا يأتوا ليقولوا لنا إنَّ هناك حقوقَ طفل،
ربما وجدت من أجل آخرين،
وليس من أجل الفلسطينيين.
لا، فالمصير بالنسبة إليهم مختلف،
ليس لديهم طفولة،
لأنها ذهبت مع الأحلام
ولم يعثروا عليها في أي طريق.



أتساءل عما إذا كنا سنصبح ذات يوم،
قادرين على أن نعيدهم؛
يوم يفهم العالم
أنَّ عليه أن ينزع العصا من عينيه،
ويكتشف
أنَّ في فلسطين
أمراء وأميرات
يستحقون مستقبلاً،

قُبْلَةً،
وقلعة حرة،
تعود إليها الطفولة والأحلام.

نبحث عنك

سمعت عن شفافتك،
عن عزاء الشعور بك قريبة.
عن غزوبة صوتك وألمه الخام.
قرأت عنك،
في أوراق كل شجرة،
في لحن كل عصفور
في السجلات الخالدة
التي لا أعلم من نسيها.

أبحث عنك كما يبحث عامل المنجم عن الماس،
فقط كي أعثر على آثارك،
على أي أثر لحضورك...
يذكرك الرجال كثيراً
يدمرون، يقتلون، يسرقون
ويعتذرون باسمك،

يدنسونه كثيراً،
حتى أنني أشك بنقاك
أشك بأنك تتنفسين،
وبأنني سأراك قريبة يوماً ما.

أنت غمامة بين الأصابع
أنت الكلمة الخيرة في دعاء مكروب.
لا أدري ماهيتك

فقد حشروك في قوارير
من مختلف الأشكال والأحجام،
كما لو أنهم لا يعلمون أنك فريدة،
وجوهرك مرمر
وليس فخاراً.

لكنهم يبيعونك، يسقطونك، يضغطونك
يبترونك، يُقولبنوك،
ومع ذلك، فنحن الذين نتمسك بك كثيرون،
وإن سمونا ساذجين،
وإن ظنوا أننا مجانين،
وإن أسكتونا بالهراوات.

أين دخلت أيتها العدالة؟

إننا ننظرك منذ زمنٍ بعيد،
أين اختبأتِ، أينها العدالة؟
هناك أطفال يُقتلون.
فلمَ تصمتين، أينها العدالة؟
باسمك يتكلم الكثير من الجبناء.

ليس هماً أينها العدالة،
إن كنتَ تريدان أن تبقى على وجهك مخفياً،
لكن من فضلك،
اكشفي عنه عاجلاً،

فنحن بحاجة إليك،
وسنصرخ باسمك: "عدالة"

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

لأنه لا وجود للحرية من دونك،
ومن دونك:
نحن عبيد.

□□□

فياض خميس، الشاعر الكوبي العربي الذي بقي شاعراً

■ تقديم وترجمة: رفعت عطفة ■

في زمن ما عاد فيه أحد يقرأ ما سُمّي في مرحلة من المراحل بالآدب الاجتماعي، يجذّ المرء أنه حين يقرأ هذا الآدب يشعرُ بحنينٍ إلى زمن مضى، وكان جميلاً، حنين إلى زمن كان الإنسان يملك فيه متسعاً من الوقت كي يحلم ويُحاول أن يبني عوالمه على قنّ حلمه. إنه زمن تعدّدية مضى، زمن لم يستطع الأمريكي اليانكي قسبه أن يمنع الناس من السعي باتجاه الحلم، وباتجاه تحقيق إنسانية الإنسان. لكن اليانكي تأمر عليه وأسقطه فصار باستطاعته الآن أن يُصادر أحلام الناس وتعدّديتهم. أن يقول لهم، كما في المراحل البطيريركية، ما عليهم أن يفعلوا وما عليهم ألا يفعلوا لكن هذه المرة على مستوى العالم.

من هنا ومن أجل مقاومة الدكتاتورية العالمية، التي تُسمّى نفسها اليوم بالعالم الحرّ، ولا تملك من الحرية غير قدرتها حتى الآن على مصادرة حرية الآخرين، علينا أن نعود إلى الآدب الاجتماعي، إلى شعر الخمسينات والستينات من القرن المنصرم، وأن نؤسّس لآدب اجتماعي جديد، قادر على أن يكون كونياً، ينقل الصوت المختنق للأفراد والشعوب. ومن هنا أيضاً تأتي أهمية قراءة كتاب جذورهم تمتدّ بين القارات، من أمثال فياض خميس، الشاعر الكوبي الذي كنّا قد قدّمناه في مختارات شعرية أخرى في أعداد سابقة من الآداب الأجنبية (63 — 64 للعام 1990) ونعود لنقدّمه في هذا العدد أيضاً، شعوراً منا بالحاجة الماسّة إليه. إنه العربي الذي هاجر أبوه إلى أمريكا وهو يحلم بالحرية والمال، فلم يحقق إلا

السعي الحثيث للحصول على الحرية والعمل بجهدٍ لسدِّ كفاف العيش، ولم يحصل على المال بمعنى الثروة، لأنه كان يبحث عنه من تعبهِ والتعب يُتعب ولا يأتي بالثروة، فيقي الأبُ مجلسُ أمام بيته كما في بلده الأم، يعزف على نايه، يتذكر السوادي والراعي في التلال التي غنتها فيروز، هذه هي ذكريات أصدقائه عنه. وجاء ابنه فياض على قَدِّ هذا الواقع، لم يحلم بأن يكون أكثر مما حلم أن يكونه الآخرون، لذلك بقي شاعراً، حتى مات وكان موته قصيدة لم تُكتب بعد.

أنا هنا

أنا هنا

أتعلّم الولادة

من كلّ سنبلّة تولد.

هنا يوماً بعد يوم

في الدهشة

أرى جدراناً ترتفع لأجل من لم يكن عندهم

مكان يبيكون فيه،

أرى كيف تمثلي الحقول بالألوان،

بالرجال يندندنون ويعملون،

بأطفال ثيابهم نظيفة، يتعلّمون القراءة

بين يدي الوطن.

أنا هنا

كحجر بين حجارة أخرى،



كشجرة أخرى،
نهر آخر،
كجزر آخر،
كزحمة أحلام أخرى.
رجل بين الرجال
الذين يزرعون نجوم
المستقبل.

نجوم الكائي



صحيح ما يقوله الأطفال:

في الكائي الأرض تكاد تكون برتقالية
والنجوم شديدة الزرقة
وأكثر انخفاضاً.

صحيح أنه صار باستطاعتنا، يوماً بعد يوم،
أن نتعلم، بهدوء،
بين الجدران الناصعة،
كيف عاش وناضل
أبطال الوطن،
ونعرف حقيقة الأشياء
التي كانت تُلَفّ

في ورق دالكن
كيلا يُدرَكها النور.
كلّ الحقيقة عن "الطيبين" و"الأشرار"،
الطيبين الذين لم يكونوا طيبين تماماً،
و"الأشرار" الذين لم يكونوا أحياناً "أشراراً" تماماً،
عن الذين كانوا مغمورين
في عمق الفاقة،
ولم يكونوا طيبين ولا أشراراً،
بل كانوا بشراً يعملون.
كان الأطفال على حق:
في الكائي،
في الجزيرة كلّها
النجوم أخفضُ
والرايات أعلى
وكوباً كلّها تزهو وتزدهر.

مناجم القريو، 8 أيلول 1960.

الشعر

على الشعر أن يصنعه الجميع

لوترمون

جميعنا معاً نصنعُ الشعر

من كل شجرة تُغرس في شارع،
من كل جدار يرتفع ليحمي
حلم منبوذ.
من كل قطرة عرق فلاح
ينظر بعين، دموعها داكنة،
إلى التراب الذي طالما رآه يُعاني؛
من كل نصر جديد
يولّد الشعرُ الرحبُ،
الملتهبُ والخصيبُ،
مع صوت الأرض التي تُشقُّ،
المحراث الذي يشقها،
الحارث الذي يغني بحبّ الشمين
شعرٌ يكتبهُ الجميع،
في النهر والورشة،
في البيت والجبل،
على حدّ المدينة،
في عيني الطفل وهو يتعلم القراءة،
في يديّ تتعلّمان الكتابة
في قلب الجميع يتعلمون
أنّ العيش ممكن دون عذاب.

هافانا، 30 تموز 1960.

قصيدة في مناجم إل فريو

تُمطرُ

ينقرُ المطرُ على سطح التوتياء

من النافذة تدخل رائحة ترابٍ حلوة؛

يتحدّث المقاتلون عن الحرب،

عن موت ثيرو ريدوندوا، عن ابتسامة كاميلو،

عن الأقدام المهشمة بين الصخور والجوع،

يتحدّث المقاتلون عن فيدل،

عن غيفارا،

عن ألميدا،

عن راؤول،

وعن أسماء أخرى من الشعب،

عمن لم يكن لهم اسم إلا في المعركة،

بين الدم وثرابٍ مانيفوا؛

وسقطوا على وجوههم في الغبار.

مقاتل يقرأ كتاباً لجون ريد،

أعرته له نوا،

ويتحرك في سريره.

تتبع الكلاب أحياناً

ليحلو ليلُ الريح والمطر.



جميعنا نصمتُ ونحكي في آنٍ معاً،
وأنا ربّما أردتُ أن أسمع أكثر من اللازم،
لكنّ الجميع يتكلّمون ويحكّون في الأعماق، أكثر من اللازم بقليل،
لأنّ كثيراً من الأشياء التي عاشوها في الجبال
مُصغين إلى خريز الجداول ونشيد الرصاص،
مستشقين رائحة ثمرة الخوبو،
كثير من تلك الأشياء لا يمكن روايتها
لأنّها ما عادت إلّا تراثاً،
شجراً،
ذكرى باهتة،
جسراً،
مدارس،
عجوزاً يبتسم،
أو طريقاً يصل إلى قلب الجبل المعتم،
كنا نمضي أحياناً مُغنّين تحت المطر،
لا نهتمّنا الجراح في الأقدام،
ولا للجوع،
جميعاً كنا متحابين، أخوة،
فجأة وإذا بنتقة من سحابة،
نصل حتى الأسرة،
وتتحلّل مع الدخان

في السقف،
بينما المطر يصدح
وقصيدتي تكبر على الورق
لو اضطررتُ أن أعود لأقاتل
لقاتلتُ ألفَ مرةٍ ومرةٍ،
ولأطلقتُ الرصاصَ باستمرار
على أعداء الوطن،
أعداء الداخل والخارج*
تُمطرُ
والمطر ينقر على سطح التوتياء؛
من النافذة تدخل رائحةُ تراب حلوة،
وفي الغرفة تفوحُ رائحةُ دخان الثورة.

هذه ليست رسالة

يا أصدقائي في البعيد:
هذه ليست رسالة
بل قطعة من جزيرة
صعب كتابة الرسالة
خاصة حين تكبرُ النجوم ليلاً
ويدوي في الدم

أحبُّ الأصوات إلينا،
لا أدري كيف أبداً،
فالأشياء تبدأ دائماً بسيطة كالبرعم.
أسمع دقائق الساعة في الغرفة الأخرى،
والشاحنات تهزُّ
جدران بيتي.

كان النهار قصيراً للغاية
لأنني لم أعمل كثيراً
(جميعاً هنا نتعلمُ
أن نحبَّ الحياة في العمل أكثر وأكثر)

دخان سيجارتي يرتفع بطيئاً في الليل
والنسمة تقترب بطيئة مني،
محملةً برائحة الأرض.

فأنا أعيش بعيداً عن الأرض،
بالأحرى أعيش في الإسمنت،
أو في ضجيج المدينة المشبع بالغبار
وفي الأرض تنمو الآن ريح حرة،
والريح الحرة في المدينة تجرف الرذالة
نحو أعماق الليل.

(أكتبُ فأحسّ برزانة كلماتي حتى أعماقي
فهي تعيش رزانة لبّ الثورة

ملفوفة بالرايات الغاصبة)

هنا قلته وهنا أقوله،

يا أصدقائي البعيدين عن هذه الجزيرة

الجميلة مثل نار هائلة

تتنصر على الفقر.

فالأشياء تبدأ دائماً بسيطة كالبرعم،

حين تنفلق البذرة.

تتضاعف الكتب بجانبني،

الأشجار تملأ المدينة

والريف يمتلئ رويداً رويداً

بالأشياء القوية والمزهرة.

لم أعرف قط كيف أكتب رسالة

وها أنا الآن أقول أشياء غير منسجمة.

يكاد يوجد فوق نافذتان مفتوحتان،

وأسمع بعض الأصوات.

الحياة تحلو وتزداد عمقا،

تصبح جميلة وهامسة مثل نهر.

لا أحد يستطيع أن يدمر ما بنينا،

فنحن متحدون بقوة،

مستيقظون وسعداء بقوة.

لا أعرف ما أقول أكثر من ذلك،
هذا كل شيء اليوم
النجوم الزرقاء تملأ نافذتي،
ورائحة التراب تملأ المكان،
وإلى اللقاء!

بيوتنا

على العشب بين الأشجار،
في الحقل والقرى،
أو في غبار المدينة
نتهضُ بيوتنا
جدراناً للسلام
نوافذاً للنجوم
حدائق لأطفال يرتدون المستقبل،
بيوتاً لمن عاشوا دائماً في ظلّ اليأس،
بيوتاً لمرق الأيتام البارد،
بيوتاً لرفات المنسيين،
للمتصبيين عرقاً، للحالمين،
بيوتاً لمن لم يملكوا نوافذ أخرى
غير فراغ أيام بلا خبز،

بيوتاً لمن لم يعرفوا سقفاً غير المطر،
 بيوتاً لمن تمزقت أيديهم،
 وأنفاسهم وهم يبنون القصور للطغاة،
 بيوتاً لمن لم يؤمنوا قط بأن من الممكن أن يوجد جدارٌ صلب ونظيف،
 بيوتاً لأماس يُمزق فيها الأطفال الصحف،
 وللقهوة والأرض تعبق بالفرح،
 بيوتاً أشادتها سواعد البنائين من فكر وطوب،
 بيوتاً لبنائي الحياة الجديدة.



ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

في خليج هافانا
 في موانئ الجزيرة الزرقاء والرنانة،
 تدخل السفن المحملة بالأشياء والصدافة؛
 أجلس برهة لأتأمل أثر مخورها،
 لأقرأ أسماءها،
 البسيطة والغريبة
 منعكسة في الماء
 المرتعش تحت المساء؛
 أجلس برهة لأعلم أنني لست وحدي،
 وأن أشجاراً وبشراً،

نوافذٌ ونفطاً،
آلاتٌ وأمواجٌ ومداخنٌ،
نجوماً ومزیداً من البشر
يحیطون بي.

هنا على جدار الممر البحري،
في خليج هافانا الملتهب،
أرى كيف تأتي السفن من البعيد القصي
ترسو في هذه المياه،
التي تكاد تكون دمي.

أجلس برهة لأصغي إلى ضجيج
الشاحنات التي توزع النفط والصدقة
من حيّ إلى حيّ. 
<http://Archivebeta.Sakhril.com>

هنا على جدار هذا الممر البحري،
حيث تتكسر الأمواج أحياناً،
وتبلّ قميصي
الأبيض سلاماً وحرية.

□□□

نعيمة، قصة أمي الطويلة الكاتب: إديت شاهين

■ ترجمة : رفعت عطفة ■

وُلدت إديت شاهين في سانتياغو تشيلي، وهي ابنة لمهاجرين سوريين. درست في دار المعلمين والتعليم والعلوم الدينية في الجامعة الكاثوليكية في سانتياغو تشيلي وميونخ في ألمانيا. اضطرت بعد انقلاب بيوتشيت العسكري إلى مغادرة بلادها في عام 1973 لتقيم منذ ذلك الوقت في مدريد. كتبت السيناريو الإذاعي تحت اسم إديت كاسانيدا المستعار.

<http://Archive.org/details/sakin>

تعتبر رواية نعيمة، قصة أمي الطويلة ثمرة جهد هائل ومكثف لاستعادة ذكريات صاحب يكاد يكون تلاشى بعد مئة عام.

وهنا نحن نقدم الفصل الأول من رواية: نعيمة، قصة أمي الطويلة، التي نقوم الآن بترجمتها بمعرفة الروائية لنقدمها قريباً إلى القراء العرب.

...

الفصل الأول

نعمة

إذا كنت تتذكرها، فنذكر بها الآخرين.

لويس ثرنودا

كانت في الخامسة عشر من عمرها يوم نادتها أمها بتلك النبرة الرصينة الخاصة بها، الودنية جداً والصارمة في آن معاً، أي تلك النبرة التي يستخدمها أولئك الذين يعرفون أنهم سيُطاعون على الفور، فلا تقبل جواباً ولا معارضة، وتكاد تنتهي الحديث حتى قبل أن يبدأ...

— يا فدوى، حضري القهوة وإتي بها للزوار.

كانت جملة بسيطة، أمراً، شبيهاً بأوامر كل الأيام، لكن لا فدوى ولا نعيمة ولا الأم التي نطقت بتلك الكلمات حدثت الخطورة التي كانت تتطوي عليها؛ حتى نعيمة التي تميّزت دائماً بملكيتها لقوة عقلية تتخطى الحدس الأنثوي البسيط، لم تخمن الخلل الذي كان سيحدثه هذا الأمر الخارج من شفتي أمها في حياتين وحياة كامل العائلة.

لم تستطع فدوى أن تكتم اختلاجاتها. نظرت إلى أخواتها بعيني غزالة مذعورة فوجدت نظراتهن مغروزة فيها — عشر زيرجيات سوداء نفذت إلى روحها — مليئة بالقلق والخفت، حرفتها صاحباتها في اللحظة لبثتها على أشغالهن. وحدها نعيمة تمكنت من بقائها ثابتة على فدوى فبقيت الأختان تنظر الواحدة إلى الأخرى، وتحيطها بصمت علماً بالأفكار العديدة التي ما كانا نجرآن على التعبير عنها بالكلمات.

جميعهن كن يعرفن معنى تلك الزيارة وتلك القهوة، لكنهن لم يجرأن على التكلّم عنه: كان موضوعاً محرّماً، من اختصاص الوالدين حصراً.

وبينما كانت الأخريات يغطين على ضحكاتهن، بمزيج من الارتباك والخل، شعرت نعيمة بالدم يغلي في صدرها حين فهمت نظرة أختها، ابنة التاسعة عشر عاماً تقريباً، التي تكبرها بأربع سنوات، متوسلة إليها أن تساعدتها عندما تأكّدت من عجزها أمام الوضع الذي عليها أن تواجهه؛ كانت على وشك أن تعرف الرجل، الذي جاء يطلب في تلك اللحظة من أبويها يدها للزواج، قبل أن يكون قد رآها، وهو لن يعرفها إلا عندما ستقدّم إليه القهوة.

كانت نعيمة تنظر إلى فدوى بملامح مبهمة، بفضول وسخرية، وهي تُفكر في داخلها بالوضع: فدوى، الضامرة، الخجولة، المترددة، المطبوعة والمذعنة، لم ترها ولم تسمعها قط تُعارض أو تردّ على أمّها، وأقل من ذلك على أبيها، ذلك أنّ هذا كان ينقل أوامره من خلال الزوجة... ما الذي ستفعله في تلك الحالة بوجهها البريء وعينيها المذعورتين؟ هل ستطيعُ أمر أمّها بشكل أعمى بالمتوّل أمام الزائر وتقديم القهوة إليه؟ ثم... هل ستقبل ذلك الرجل زوجاً، هكذا والله باشه، لمجرد أنّ والديها يأمرانها بذلك...؟

كانت الأختان ما تزالان تنتظرُ الواحدة منهما إلى الأخرى، في طقس أبدي من تناقل الأفكار.. دون أن تتكلّما.. دون أن تتنفسا تقريباً، ودون أن تشي أية حركة بالقلق الشديد في رأسيهما الصغيرين... كما لو أنّ أدنى إيحاء يمكن أن تُثير نهاية مشؤومة، لدغة أفعى، انهيار جبل جليدي، كانت نعيمة أول من فكّ السحر. هزّت كتفيها نافضة المسؤوليات التي يمكن أن ينطوي عليها القرار، متصلةً منه، لكنها لم تسطع أن تتخلّص من النظرة التي أبقتها أختها ثابتة على نظرتها.

كان باستطاعتهم أن يتكلّموا في مناسبات أخرى، معلقات فيما بينهما، بل وينتقدن بعض العادات القديمة التي تؤثر عليهن ويرغبين بتبديلها، لكنهنّ ما كنّ ليستجرن أبداً أن يفعلن ذلك بحضور أبيهنّ، ولا حتى بحضور أخواتهنّ الصغيرات. بالتحديد كانت الحالة تستحق في تلك اللحظة التعليق والسفد. ستجدُ فدوى نفسها مجبرة من قبل أبيها على الزواج من رجل مجهول، دون استشارة مسبقة، وهذا الذي يحدث اليوم للكبرى سيحدث للبقية. كما لن يسألنها عما إذا كانت ترغب بالزواج، أو عما كانت تقبل، عن طيب خاطر، هذا إذا لم يكن بحماس، الرجل الذي يطلب يدها، أو ما إذا كانت ترفضه لأنّه أكبر منها مرتين، أو لأنّه بدين، أو شارب مريعان، أو ببساطة لأنّها لا تحبّه...

الحب! من كانت ستجرؤ على لفظ هذه الكلمة؟ الكلمة الجميلة التي لم

تستطع شفاهين الطرية والفتية أن تتجراً على النطق بها، لكنهن يُدغدغنها بأفكارهن منذ أن تعلمن القراءة في كتاب النصوص الأول: الكتاب المقدس. مبشرات الكنيسة، اللواتي كن يلجان إليهن، بدان تعليمهن القراءة والكتاب المقدس، فاتحات عالمن على الثقافة والإيمان المسيحي في أن معاً. علمهن القراءة في أسفار العهد القديم: سفر التكوين، سفر الخروج وأخرى غيرها، وكذلك أسفار العهد الجديد، الأنجيل والرسائل، بل وحتى سفر الرؤيا، متجاوزات باستهتار تلك الكتب التي يمكن أن تطرح عليهن أسئلة صعبة، أو توقظ عندهن بعض المشاعر المتنوعة، مثل نشيد الإنشاد، الذي اكتشفته الأختان يوم تعلمته، خلصة، عن ظهر قلب، كي تذكره حين تكونان وحيدتين وتراقان ليلاً، سائلة الواحدة الأخرى عن معاني: قومي، يا حبيبتي، يا جميلتي وتعالني!... ثدياك كخشفتي ظبية توأمين يرعيان بين السوسن... أنا لحبيبي وحبيبي لي. وكان الكتاب المقدس يحتوي على كتابات مملّة جذاً، أو غير مفهومة، لكنه يحتوي أيضاً على كتابات رائعة، بل وحتى مثيرة. لماذا كان متنوعاً الكلام عن هذه الأشياء، بل وحتى ذكرها، إذا كانت كلمات موحاة من الرب إلى مختاريه؟ هل كان أبواهن مخطئين؟ لا، لم يكن الذنب ذنب أبويهن، فهذا التصلب جاء من الماضي، من قرون سابقة، وبالتأكيد سينوم قروناً أخرى... لن يرين هن التغييرات ولن يكن قادرات على الدفع بها، كيف سيجرأن على التقدم خطوة نحو التحرر، إذا كان كلما ظهرت امرأة تتوي الخروج على القمع والتحرر من نيره، يُعاقبها أبواها بالحبس والعزل، حين يتعلق الأمر بفنائة عازبة، وإذا كانت متزوجة، فإن زوجها يذلها ويشكوها للسلطات؟ كم من النساء متن مرجومات أو مجلودات لمحاولتهن التحرر؟ لم تعرف نعيمة إنا منهن، لكن عماتهن وأمتها حكين لها ذلك. كانت تفكر أحياناً أنهن يفعلن ذلك لمجرد إخافتهن والإبقاء عليهن تحت المراقبة. ووصل الأمر بهن إلى القول بأن بعض النساء اللواتي لم يبعين إطاعة آبائهن أو أزواجهن سلن إلى الأتراك، الذين كانوا يجعلون يقطن الصحراء حافيات ليسلموهن لقائدهم، المتلف

دائماً لزيادة عدد جوارى حريمه.
ومن جديد سُمع صوت الأم:
— يا فدوى، هل سمعت؟ حضري القهوة.
تمسكت فدوى بعصبية بيدي نعيمة.
— هل تريدني أن أقدم أنا القهوة؟ — سألت الصغيرة عفيفة، التي لم
تكد تبلغ السابعة.
— لا تحشري أنت نفسك في هذا — وبختها كريمة، موقف إياها من
ذراعها.
— أريد أن أرى الزائر — ألحّت عفيفة بغنج.
— يا للأشياء التي تخطر لهذه الصغيرة! — زمجرت يولاً — ألا
تعرفين أنه ممنوع علينا أن نطل على الصالون حين يكون هناك زوار؟
— إذن لسألتوا إلى هنا كي نراهم... — كانت الصغيرة تستند كل
احتياطاتها في سبيل أن تحقق نزواتها.
تدخلت كريمة مصالحة هذه المرة.
— أنت تعرفين أن الزوار لا يستطيعون أن يدخلوا إلى هنا؛ هذا ممنوع
أيضاً.

— لكن إذا أراد أبونا... — بدّ صغيرة أيضاً، أغلقت فمها.
— قلنا لك أخرسى وخلصنا — قالت هدباء هامسة تقريباً في أذن
الصغيرة، بينما راحت تحاول هذه التخلص منها، خامشة يدها.
كانت عادة قديمة جداً عند بعض الطبقات أن تبقى البنات داخل البيوت
دون أن يطلن ولا حتى عندما يأتي زوار إلى المنزل. وحدهن الصديقات أو
القريبات اللواتي كن يذهبن مع أزواجهن للسلام على الوالدين، يستطيعون
أن يدخلوا للتعرف على البنات في مكان داخل البيت، حيث يقمن دائماً بعمل
ما، لكن الرجال لم يكونوا يتمتعون بهذا الامتياز. لم يكن مسموحاً لهم

الاقتراب من مكان تواجد بنات صاحب البيت، ولا هنّ يستطعن أن يذهبن إلى الصالون الذي يُدخّن فيه هؤلاء ويتبادلون الأحاديث "التي لا تصلح كي تلامس مسامع النساء". الاستثناء الوحيد كان حين يحضر طالب يد بهدف للزواج من إحدى البنات، لكنه لم يكن يملك الحق باختيار الأهل أو الأذكي؛ فالشيء الوحيد الذي يستطيع اختياره هو العائلة، وكان يفعل ذلك مُفكراً بمستواها الثقافي، والاجتماعي، والديني والاقتصادي. وما إن يتم الاحتكاك الأول حتى يُقرّر الأبوان من سيُقدّمان من بناتهما لطالب اليد، حيث يقع الاختيار دائماً على الأكبر سنّاً وطريقة تقديمها كانت بالضبط باستعداداتها لتقديم القهوة للزائر ومرافقه، وهو عادةً قسّ الكنيسة التي تنتمي إليها عائلة خطيبة المستقبل. لكن كلا الطرفين يطالب حذراً بكل أنواع التفاصيل، بهدف التمكن من اتخاذ القرار، حيث كان القسّ يلعب دوراً حاسماً، آخر التفاصيل التي تبقى لاتخاذ القرار هو أن يعرف طالب اليد الخطيبة، ليس كي يقبل، إذ عليه ألا يرفضها، أو أن يُلطّخ شرف العائلة، بل لينتج الصفقة بعد أن يجرب القهوة التي تُقدّمها هي إليه. تلك كانت الخطوة الأخيرة في طلب يد صبيّة في مدينة حمص، وكل ما عدا ذلك يتم الاتفاق عليه مسبقاً؛ فصاحب المصلحة يقدّم نفسه لأبوي العائلة، حتّى دون أن يكون قد عرفهما من قبل، ويعرف فقط، من خلال الأخبار التي يُقدّمها له أصدقاؤه وأقاربه، أن الأمر يتعلّق بعائلة كريمة، وضعها الاقتصادي جيّد ومستواها الثقافي عال، وأن لديها ثمانية أولاد، سبع بنات وابناً واحداً وأن كل البنات يعرفن القراءة والكتابة، الطهي والخياطة والتطريز والحياكة والقيام بأعمال المنزل. بعدها يقدّم له الأبوان بعض التفاصيل الحميمة عن الفتاة المختارة: صحتها، مزاجها، ذكاؤها، انتظام العادة الشهرية عندها — هذه المسألة في غاية الأهمية بالنسبة للذرية — وأشياء أخرى مثل الصداق الذي ستلقاه هذه وكل ما يبدو للمتقدّم مهما أن يعرفه. وفي الوقت ذاته يُعرّف هو بنفسه، وعائلته، باسمه ومكان ولادته، عمله وعمره، ورأس المال الذي يملكه، والمكان الذي سيقوم فيه؛ كما يجب أن يكون مستعداً للإجابة على كل الأسئلة التي يرغب

والدا الخطيبة المستقبلية أن يطرحاها.

في هذه الأثناء كانت فدوى ما تزال تنتظر إلى أخواتها اللواتي عدن ليحسبن رؤوسهن فوق أشغال الإبرة. كنّ يُشكلن لوحة جميلة من الفتيات، بشعرهن الأسود، شبه الأحمر تحت خيوط شمس مساء الشرق، بأثوابهن الطويلة، مختلفة الألوان، محاطات بنباتات ذلك الرواق، الشاهد على الكثير من الضحكات والزفرات والأسرار والأسئلة التي لا جواب لها.

كانت السفائر السمكة التي تفصل الرواق عن بقية المنزل تهتز إلى هذا الجانب وذلك تحت ضغط يد قوية. ارتعشت فدوى حين رأت أمها وخفضت عينيها. نظرت الأخوات إلى الأم حين قالت بصوتٍ بدا صارماً:
— فدوى! ناديتك كحي تُحضري القهوة لزوارنا، ألم تسمعي؟

قالت ذلك وراقبت ابنتها، التي ارتبكت وسقطت منها كيب الحرير التي انفكت على الأرض. شعرت بالاعتزاز بها حين رأتها بتلك الرقة والخجل والجمال والحلاوة، كما يجب أن تكون الفتيات المهدبات في منزل كريم وصارم. لقد عملت سنوات طويلة في إعداد بناتها من أجل الخطوة التي ستقوم بها الكبرى الآن، وهي أن تسمح لأي شيء أن يعيق سير حفلة طلب اليد.

كانت الابنة الكبرى تعارك بين النحيب وجواب لا تجرؤ على إعطائه لأمها، أو بالأحرى سؤال لا تجرؤ على صياغته. كانت تعلم تماماً أن عليها ألا تصوغه، ما من صبيبة تملك الحق بطرح أسئلة عن الرجل الذي يطلب يدها، ولا حتى عن اسمه.

— لكن، بُنيّتي... فدوى... ماذا بك؟ هل يعني أنك لن تطيعيني. هذا شيء مهم بالنسبة إليك وللأسرة كلها...

— لا أستطيع.. لا أستطيع!.... — قالت منتحبة، مغطية وجهها بيديها.

— هيا، يا بُنيّتي، تعالي إلى هنا، اجلسي لحظة، وقولي لي، ألا تريدن

أن تتزوجي، نكوّتي أسرة، يصبح لك بيتك الخاص، أولادك، زوجك، حياتك الخاصة؟

— أنا أتزوج؟ يكون لي بيتي الخاص، ... يكون لي زوج.. أولاد — كرتت فدوى، مطلقة مع كل وقفة نحيباً واهناً، تمطه عمداً، أمله أن تتم أمها الجمل بمزيد من التفاصيل، لكنها لم تتمكّن — مازلتُ صغيرة جداً... — دافعت عن نفسها.

— صغيرة؟، قريباً ستتمين التاسعة عشر، ما عدت صغيرة. فالبنات يجب أن يتزوجن في الرابعة عشر أو الخامسة عشر من أعمارهن؛ وبعد هذا السن يبدأ الناس يفكرون أن بها عيباً ما أو أنها عاقر، أو على كل الأحوال تبقى منبوذة. هل هذا ما تريدينه؟

بقيت فدوى ترتعش ونظرها مرفوعاً بخوف إلى أمها، تكتم آلاف الأسئلة الممنوعة، مئات الاحتجاجات، الرغبات العيثية بمعرفة ما ترغب بمعرفته كل الصبايا في مثل عمرها. بدا أن الأم تقيمت وضع ابنتها، أخذتها من يدها الرقيقة، نظرت إليها بحمق، إلى تلك العينين السوداوين اللتين بدتا ذهبيتين تحت انعكاس الشمس، اللتين رأت فيهما — كما لو في مرآة — وجهها ذاته، وجه المرأة التي ما تزال شابة، على الرغم من سنواتها الأربعين وقالت لها بصوت خافت:

— هل تريدين أن تبقى عانساً للأبد هنا في البيت، ترعين والدك وتقومين بالأعمال المنزلية؟

— نعم، يا أمي، أريد أن أبقى معكم! — قاطعتها بحدة وحماس حقيقي. لقد وجدت فدوى مهزباً.

— ألا تريدين أن تستغلي هذه الفرصة كي تتزوجي؟ من المحتمل ألا تُتاح لك فرصة أخرى مثل هذه. لا تهزي رأسك وتقولي لا. وضحي لي لماذا لا تريدين.

— أنا خائفة، خائفة جداً...

ضحكت الأم، موحية بأن هذه حماقة، على الرغم من أنها تتذكر في داخلها أنها هي نفسها لم تخف وحسب بل ارتعيت حين قرّر والدها تزويجها. صار ذلك مثل حلم بعيد، يكاد لا يُصنّق... أن تكون قد شعرت بالخوف أمام حالة بسيطة بساطة العرس، أمام رجل وديع وعطوف كزوجها. لكن رد فعلها السريع وشخصيتها القوية ساعداها على أن تصبح شيئاً فشيئاً وفي سنوات قليلة المرأة الناضجة، الزوجة المحبة، والقوية والمسيطرة في آن معاً، الأم المتفانية وإن كانت متصلبة وصارمة، مديرة أملاك الأسرة والمرأة الثانية — الأولى كانت أمها نفسها — في حمص التي تدير شركة الأسرة، صناعة الحرير. كل شيء راح يتأكد ببطء والآن.. عادت إلى الواقع حين سمعت ابنتها تردّد:

— أنا خائفة جداً.

— خائفة؟ يا ابنتي، يا نور روحي، صرت امرأة وما عاد عليك أن تخافي من شيء. الحياة تقدم لك فرصة: رجلاً جدياً وشاباً، ناضجاً وغنياً، رجع لبلده فقط ليبحث عن خطيبة. من أجل هذا جاء من مكان بعيد جداً واختارك أنت، شيء رائع. أبوك تحدث معه، بحضوري، وبدأ له رجلاً جيداً، مهماً، سافر كثيراً إلى بلاد مختلفة ويعرف كيف يحكي الروائع. هو الآن مع والدك ينتظر القهوة. هنا، شذي حيلك وسأساعدك على تحضيرها، لكن عليك أنت أن تقدميها له. حضري تلك الصينية.

أطاعت فدوى أمها كأنها رجل آلي، وهي ترى كيف راحت أمها تحضر القهوة بمهارة وحين جهزت...

— لا أستطيع، لا أستطيع... أموت من الخجل...

فقدت الأم هذه المرة عذوبتها، نظرت بصرامة إلى ابنتها وقالت لها:

— ليس عليّ أن أتحمل هذا. عليك أن تطيعي أوامر أبيك. هو قبله صبراً مستقبلياً، وقال له إنه سيراك حين تحملين القهوة. دعي خوفك

وخجلك جانباً؛ ما عدت طفلة. أخريات، بعمرك، متزوجات وعندهن ولد أو اثنان... ما عليك فعله هو أن تطيعي الآن بالذات، قبل أن ينفذ صبر أبيك.

ارمت فدى على المساند باكية، وتوسلت وجهه:

— من فضلك، انتظري قليلاً. اذهبي إليهم، يا أمي، دعيني أرتاح قليلاً. يداي ترتجفان، سيسقط كل شيء منهما. حين أهدأ، أروح.

— حسناً، لكن لا تتأخري. سأقّم لهم في هذه الأثناء النرجيلة. لا تنسي صينية البقلاوة والمناديل.

من الرواق سمعت خطوات الأم وهي تبتعد. وما إن اختفى وقعها حتى سارعت نعيمة بحذر، تبعها هدباء إلى خارج الرواق واقتربت من الستائر السميكة التي تزد مدخل الصالة. بقيت فدى في الرواق معانقة الصغرى كي تسندها. بقيت الأختان جامدتين، صامتتين، كاتمتين نفسيهما ومحاولتين أن تسكنا خفقات قلوبهما خوفاً من أن يسمعهما أبوهما والزائر الغامض، تضع كل منهما يداً على فمها وأخرى على قلبها. مرت لحظة لم يكن فيها غير الصمت. كانت الأم تشرح لزوجها الأمر هامسة في أذنه، فيدا متقيماً ومنزعجاً في آن معاً: ثم وبعد أن تبدلت قسماته توجه إلى طالب يد ابنته:

— عذراً لأن ابنتنا لم تحضر في الحال. تقول زوجتي إنها خائفة ومستحيبة كثيراً. في الحقيقة كان هذا مفاجئاً لنا وأخذنا جميعاً على حين غرة. نأمل ألا يتناقض هذا مع مقاصدك ومشاريعك. أرجوك أن تنتظر القهوة برهة أخرى. في هذه الأثناء نستطيع أن ندخن النرجيلة التي جاءتنا بها زوجتي.

— لا تهتم. على العكس، صدقني إن هذا يفرحني. لهذا بالتحديد جئت من ذلك البلد البعيد لأخطب من بلدي. أريد امرأة حيية، بسيطة ومطبعة. أنا سأساعد على أن تتضح وتصبح جريئة، قوية العزيمة ونبهة. أنا بحاجة لأن تكون زوجتي امرأة كاملة.

وبينما كان الرجل يتكلم، تبادلَت النظرات بعيونهما المعبرة التي توسعت حدقاتها، بينما ارتجفت أصابعهما وهي تضغط على شفاههما. كانتا تشعران بخفق قلبيهما كأنهما يريدان أن يخرجا من صدريهما.

— له صوت فرح ورنان — همست هدباء.

— صوت فولاذي — قررت نعيمة ثم حركت بدافع لا يمكن ضبطه طرف الستارة بنعومة وتأملت لثوان المشهد الذي كان يدور في الصالون، وحين توقفت نظرتها على طالب اليد، أمسكت أنفاسها... شيء غريب كان يدور في داخلها لم تستطع التحكم به فتركت الستارة تسقط بحذر شديد وعادت إلى الرواق على رؤوس أصابعها، مضطربة مثل أختها هدباء، التي كانت تتبع خطواتها.

هناك وجدوا فدوى أكثر هدوءاً، لامعة العينين، محمرة الخدين، منكوشة الشعر، وهو ما جعلها من الجمال بحيث أن نعيمة فكرت: لماذا يقولون إنني أجمل من فدوى، إذا كانت هي بهذا الجمال؟

— يا فدوى، قل لي لنعيمة أن تحكي لك، فقد رأيت كل شيء — قالت هدباء بعصبية.

— وهل دخلت؟ كيف هو، بدين، نحيل، عجوز، شاب؟ — سألن جميعاً.

— لم أدخل إلى الصالون، لأن أبي سيعاقبني.

— احكي لنا ما رأيت وخلصنا — ألحن جميعاً.

اقتربت فدوى بوجهها شبه المتبدل من نعيمة برقّة وقالت لها ممسكة بيدها:

— هل صحيح أنك رأيت؟ كيف هو، كيف يتكلم، كيف يبتسم، كيف....؟

— إنه عجوز — قاطعتها نعيمة التي بدا أنها لا تريد أن تتكلم أكثر من اللازم — مثل العم حنا.

- لكن عمر العم حنا خمس وعشرون سنة...
- هذا هو، يبدو في الخامسة والعشرين من عمره. ليس بديناً ولا نحيلًا، لا طويلاً ولا قصيراً...
- كيف هو وجهه؟ — سألت فدوى.
- وجهه عريض عند الجبهة، لكنّه يدقّ في الأسفل. له شارب مقنول إلى الأعلى، شديد السواد، مثل شعره....
- وعينه؟
- جميلتان، داكنتان ومعبرتان. وجهه كلّ معبر ولطيف، لكنّه لا يبتسم. صوته فولاذي ويتكلّم بهدوء كبير. قال: يشرفني جداً أن تدعوني لتناول فنان من القهوة في بيتك الكريم الذي أتمنى من الله أن يباركه في كل لحظة. ويسعدني أن أدخّن النرجيلة ريشاً ننتظر... القهوة — أنهت نعيمة مقلّدة إيّاه.
- كم تحسّنين تكلّيدك — قالت هدياء وضحكت الأخريات.
- هذا يعني أنّه صمّر عليّ أن أحمل إليهم الضييفة — قالت فدوى وهي تعصر يديها المرتجفتين. لا أدري ما إذا كنت أستطيع تقديم القهوة إليهم.
- عليك أن تفعلي، وإلاّ فسبّبين الإهانة لبابا — قالت واحدة منهم.
- والزائر سيذهب مهاناً — قالت أخرى.
- ولن تجدي خطيباً بعدها أبداً — قالت ثالثة.
- لكن، يا إلهي، ماذا باستطاعتي أن أفعل!
- لماذا لا تقولين لي ما هي مشكلتك؟ لا أظنّ أنّك خائفة ولا مستحيية.
- قلت هذا كي تؤثري على ماما. — علّقت نعيمة.
- صحيح. على الرّغم من أنّك تصغرينني بأربع سنوات، كنت دائماً أذكى وأكثر حزمًا مني. أظنّ أنّ باستطاعتك أن تفهميني.. أنا أحب أن

أتزوج من رجل يكبرني بسنة أو سنتين... يختارني وأختاره، لأننا نشعر بأنفسنا مشدودين الواحد إلى الآخر، لأننا نحب بعضنا بعضاً، وليس لأن أباعنا يُجبرونا على ذلك..

كانت الأخوات يصغين إليها بصمت مطلق، وعيون، كبيرة بحد ذاتها، تنفتح أكثر في كل مرة تُعبر فيها فدوى عن أوهامها.

— بودي أن يحكي لي هذا الرجل أشياء عن نفسه، وأحكي له أنا أشياء كثيرة عن نفسي، ما أحبه، ما أمل به من الحياة... وبعد زمن من تعارفنا، نتزوج إذا اتفقنا... — أنهت فدوى جامعة في عينيها كل الحب الموجود في داخلها.

— لكن، يا فدوى، هل تعرفين ما تقولين؟ — استطاعت نعيمة أن تقول أخيراً... — أتقنك جيداً، لكن هذا مستحيل... تعرفين ما علمنا إياه أبوانا. وتعلمين أيضاً أن الخطيئة في السابق كانت لا تعرف العريس فقط ليلة الدخلة. على الأقل أنت ستعرفينه قبل ذلك... الآن بالضبط، حين ستأخذين له القهوة.

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

كانت الأخوات الأخريات ينظرن إليهما فاغرات الفم. لم يخطر ببالهن قط أنهن سيسمعن مثل هذا الحوار داخل جدران ذلك المنزل، أكرم بيوت المدينة كلها، كما كانت تقول أمهن.

— آد، يا نعيمة! ظننت أنك فهمتي! — أنت فدوى — لا أستطيع ولا أريد أن أخذ القهوة. لن أظهر في الصالون، سأمرض، سأقوم بأي عمل، سأكسر الألواني، أطفئ الشموع، أنظاها بنوبة كيلا أذهب إلى الصالون. ألا تفهمين؟ لا أستطيع...

— لا تستطيعين ولا تريدن... حسناً — شجعتها نعيمة بشهامة — لا تهتمي. إذا كنت لا تستطيعين فأنا سأفعل ذلك.

— صحيح؟ هل ستفعلين هذا من أجلي؟ هل تعرفين كيف سيكون رد فعل أبينا، سيشرع بالإهانة وسيعاقبنا. وسيذهب ضيفنا مهاناً، سيتكلم عنا

وسيعلم كل الناس بذلك...

— لكن ماذا تقولين، يا أختي العزيزة؟ لن يُهان أبوانا. ورائنا لن يذهب مهاناً، كما لن يتكلموا عنا — رنت نعيمة بغموض متحفّظ.

— لا أفهم عليك. قلت لي إنك ستأخذين القهوة بدلاً عني. قلت ذلك، أليس صحيحاً؟ أم أنك صرت تخافين الآن؟

— طبعاً سأأخذ القهوة إلى الصالون، وسأقدّمها لهم. أنا لا أخاف ولا أخجل. أكرّر، يا عزيزتي فدوى، سأقدّم القهوة، أعدك بذلك. لكنك أنت من سينزوّج منه.

وأخذت الصينيتين ببراعة، بعد أن جمعت جدائلها في أعلى رأسها، وتوجّهت بخطوات سريعة إلى الصالون ورشاقة غزلة، تتبّعها نظرات أخواتها الخمس غير المصدّقة والخائفة، وعلى الرغم من العصبيّة إلا أنّهن لم يستطعن إلا أن يُعجبن بقامة نعيمة الممشوقة وخصرها الرقيق وملاحة وركبها.

http://Archiveeta.Sakhrit.com

توفيت أمي، نعيمة، يوم الثاني عشر من نيسان من عام 1989، في سانتياغو تشيلي وهي بطلة "ذكرياتي عن الزمن القديم"، لأنها ملأت وتملأ — طفولتي، ومرافقتي ومرحلة نضوجي كلها. لم تملأ شبابي لأنني ابتعدت عنها متبعة أو هامى، التي لم أعثر عليها قط. والآن وأنا أصل إلى عمر النضج تستمرّ بجانبتي؛ على الرغم من غيابها في الماوراء، أشعر بها، أقرأها في الرسائل التي ما أزال أحتفظ بها، وأستمع إليها في الأشرطة التي سجّلتها في تشيلي كي ترسلها إليّ إلى مدريد منذ أن وصلت إلى هذه المدينة في عام 1973 وتكرّر عليّ، فيها جميعاً، قصص حياتها الطويلة ذاتها، التي امتدت مئة عام. لأن نعيمة أتمت يوم الثاني عشر من أيلول من عام 1996 المئة عام.

قبل مئة عام، في الثاني عشر من أيلول من عام 1896 وفي مدينة سورية جميلة تسمى حمص، ولدت أمي نعيمة خوري، زوجة والدي يوسف مطانيوس، الذي لم أعرفه، لأنه توفي وعمره لم يتجاوز أشهراً قليلة، لذلك لم أملك أخوة أصغر مني، لكنني أملك ثلاثة عشر أخاً أكبر مني. أي أننا كنا سبع بنات وسبعة ذكور، ولولا أن أمي ورثت عن جداتها بعض الضعف تجاه تربية الذكور، وفقدت الجميع تقريباً عند ولادتهم أو بعدها بقليل، ولم يعيش منهم غير واحد إلى جانب سبع بنات، يكررن في حياتهن ذاتها تجربة أمهن من حيث عدد الأولاد الأحياء.



مختارات من شعر الشاعر التشيلي من أصل عربي: محفوظ مسيس

■ ترجمة: بهاء البني ■

ولد في إيكينك يوم 19 آذار 1916. درس في مدرسة إيكينك الإنكليزية وكان عضواً في تحصيله الأدبي والثقافي. تزوج من الرسامة لوكود روكا، ابنة الشاعر بابلو روكا. أدار نقابة الكتاب بين عامي 1945 و1948 وكان واحداً من مؤسسي وكتاب جمعية كتاب تشيلي في عام 1955. كما رأس معهد الثقافة التشيلي العربي.

كتب القصة والشعر والمقالة من أعماله: <http://Archive.org>

الثلاثة (دراسات) 1943. بهائم المبارزة (شعر) 1949. والت وإيمان، صاحب رؤى لونغ إيسلاند (دراسة) 1953. أحلام قايين (قصص) 1953. سوناتات الديك الأسود (شعر) 1958.

أساطير المسيح الأسود (شعر) 1963. كتاب النجوم المنطفئة (شعر) 1964. انتخاب المنفى (شعر) 1981.

...

عاري

عند حافة هذه الجبال القاسية والبيضاء،

أنا

محفوظ مصيبي
خثرة فلسطين في القارة الأمريكية،
ابن العالم الثالث،
العين الثالثة،
هذا القمر الفارع،
أرفع صوتي، مثل مهر في وجه السماء المظلمة.

سيرة مطلقة

1942



ARCHIVE
<http://Archive.bta.sakhrit.com>

من بهائم المبارزة
بهائم أمّنيّ
تبحث عن وادي الأمير، الذي يعيش برئة تمّ.
سكران أنا بنبيذ النظير، النبيذ المملّح
بالذكريات والرماح.
انظروا إليّ عارياً. سلاحى الوحيد القبله،
يداي لا تكادان تتسعان لموت شاعر.
وأكثر من ذلك، أنة رائحة ثعالب تُعطر أصداعكم؟
لماذا هذه الطيور السوداء فوق مسكنكم.
روحي لا تحتاج غير الحب
والحشيش الطيب الغافي في عيونكم.

لكن أية حجارة، أي إرث، أي حظ مشؤوم،
أية كلابات تشدني مثل كلب
إلى التمثال، إلى حافة هذه الغابة الملعونة؟
أسبر الرحابة، المموخ التائهة
المربوطة إلى السماء؛
إلى النجوم التي تسقط في البحيرات الصغيرة.

لكن، آه، فالأغلال تشدني بعيداً
إلى حيث النور يعارك
منذ دورات من الغابات والسنين،
والأسماك تسقط من مندة العنق للطيحان.
فيما وراء الفضاء الإلهي المخمن
حيث تتكسر أجنحة الرب:
أنا مشدود إلى طحالب روعي السوداء.

البحث عن الأمير المذبوح

1942

فتشوا عن قلبي
في نزل الأمراء الميتين.
في أعصابي يتغذى نشيد فهود
وفيها دلفين غاب عند حافة الملعى.

لكن قولوا لي، أين الأمير الذي التهمه اللباب،
 سرواله القطني الأبيض،
 نداه النقي الملتهم
 أنا أشك بالكونت ذي العينين مختلفتي اللون،
 القائد الروماني المتجمد والأسماك التي يغذيها ليلاً كفن الجب.
 ابحثوا في أي صهر يج في أي مستقع ننت
 مثل زهرة مصباح بعيدة في الحياة
 يترنح، يتيه ويهز عنقه المذبوح!
 أية رياح ضحك تزمجر في حقول الحور؟
 من يبكي الأمير، قولوا لي من يبكيه؟
 في أحواضه فضاء يتسع للظلال، السماء، الذهب والهدوء؟
 هيكله يتفسخ في كوة من رصاص، قاحموة.
 فأنا لا أستطيع، فيداي مشغولتان بالحلم
 وغالب الحلو يغسل الخناجر القديمة.
 أنتم، يا من تمرّون بهذه الكوة، اطرقوا الباب.
 فأنا الأمير المحروم من الحقوق.

القصيدة الثالثة

أنا، محفوظ مصيص، العيد،
 المهرطق ذو الجلد الأسود،

المجنون، الهارب من الجندية،
الساذج المتجمّد تحت الثلج.
أخفي أسناني، أسنان التيس، وذيلي ذيل الملك البابلي،
بينما أسير في المدينة بجانب النهر الضيق.
بين الزيت الضارب للسود،
يعبرُ شبحي السوداوي المزاج المستنقعات،
يعوي على الجلالة القمرية
بسترتي، سترّة الميت الداكنة:
تستطيع أن تلمس وجهي، فراشة عظامه البعيدة.
وجهي، وجه الصنم يبقى
ضائعاً في أكياس الليل، دونما خيار.
تهت ألف سنة بعيني اليائستين، أكلت تحت الأسوار
وذاث فجر شرعتُ أغني بصوتي الضخم، صوت القاتل،
أكتب هذه الطقطقات، طقطقات الحدادين القدماء.
كإله سماوي شاحب وصغير
أسير الآن في العالم بعيني، عيني الكلب،
أنكش التراب، بين الحشرات ونباتات الشقار المنقّصة،
باحثاً عن رأس حبيب
وجه ضائع منذ زمن طويل.

القصيد 18

على هذا القلب، الذي حنَّته الحجارة،
على هذا الصدر المتآكل،
كنتُ أخفي وجهي في الطفولة العارية،
حين كان غراب الليل الطويل،
ونواقيس الحياة الأخرى تصدعُ أحلامي الهستيرية والعاصفة المبكرة.
أحدُ كان يضع أصابعه على مطرقة الباب الغليظة
يطلُّ بقرنه المحاط بالحباحب،
وضحكته الشبيهة بعريشة من رماد بارد،
ويرمي على السرير عقرب ظلام.
في كلِّ صباح كنتُ أُلَمُّ جنَّتِي،
تلك الأصابع الجافة، مثل زهرة صفراء،
الشفاه، التي لا يمكن العثور عليها الآن،
كانت تشعل فتائل عيني الحزينة.

أنا المحارب

من شهادة على الحجر (1971)

ما عدتُ أدري كيف أعيش
متلثماً بهذا اللسان، المجهولة لقلبي،
اللسان الصلب والسائل المتأجج السافر،

لسان القديس المهان،
الأجيال التي هددت البحر فوق عظم الجوع الشاحب.
في لغتي جردان ومغنولية؛
مطر.
أسنان، شفاه صفراء،
مصباح قاتل مثبت بالباب.
و ذات ليلة دفنت
أبي. سرتُ وحيداً.
دائماً كان هناك ميت
في كأس،
نظرة،
قبرة تكي بأكثر اللغات غموضاً.
مزقتُ حذائي
وأنا أسير.
وتدلى الفقر من عنقي مثل إوزة برية.
ومن قلبي
انبتق
دم أسود،
كما من طفل مشنوق،
قليل من الماء وهذا التبغ الأبدي، تبغ محارب هذا العالم.

□□□

مختارات من شعر الشاعر التشيلي من أصل عربي: نيودور السقا أبو عبيد

■ ترجمة : رفعت عطفة ■

ولد في سانتياغو يوم 25 تموز 1958 درس تصميم الديكور في تشيلي بدأ
اهتمامه

بالأدب مبكراً. يمارس الرسم وشارك في معارض كثيرة فردية وجماعية
من أعماله

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

تعلم الموت (شعر) 1983

ريح بلا ذاكرة (شعر) 1984

...

عودة

مرت الطفولة سريعة،

مخلفة نفقاً

أعود إليه أحياناً

كي أدمج الجراح.

وقت في جهنم أخرى

إلى أرتور رامبو

أيها الموت،

يا وحشة البشر الكونية،

يا يد الوجود الحذرة،

خذ روحي إلى جحائم أخرى.

شرفة



تعبرُ سحائبُ

جبالاً دائنية،

أسمائك جبارة

طيور ضائعة.

كل شيء يمر من هنا

من هذه الشرفة المضغضة

بدقة دينية.

الثواني:

دلف في الرأس

حيث ينزلق الوقت

قطرة ففطرة.

كيف ننشر الأجنحة؟

كثيرة القضبان!
عطش العصافير!
بنوا بيتنا
بالقرب من الطريق
الذي يقود إلى الموت...

4

مرّ البشر
السفن
الجبال

كل شيء راح يرتفع بعيداً
عن درجات الموت، ملامساً في الأبدية
خطّ النواصات.

9

جيوبي مليئة بالماس
والأحلام
التي عليّ أن أصقلها.

□□□

مختارات من شعر: فريد عيد نصّار

■ ترجمة: رفعت عطفة ■

وُلد فريد البعازر عيد نصّار، الشاعر التشيلي من أصل عربي في تالكا هوانو يوم 26 كانون الأول من عام 1952. درس التعليم باللغة الإسبانية في جامعة تشيلي قرأ بولنير وأبولونير ورامبو ومالارميه وكان أكثر من أثر به هو الشاعران الإسبانيان ليون فليب ولوركا

من أعماله:

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

في نهاية الخيال حيث تبدأ الوحشة (1977)

وجوه الصمت (1978)

اعترافات مرتنة (1979)

تشيد سينفوني — مسرحي (1981).

...

رحمة

من لا ينتظر النصر مهزوم!

(ليس شهيداً من يصل إلى جلجته

دون أن يقاتل وهو في الطريق إليها).

أصنعُ تابوتاً من أقوى أخشاب شعبي
كي أقبر الدبابات في صحاري،
أو في الخنادق ذاتها التي شفى فيها الموت غليله طوال قرون.
جنت أطلب الرحمة:

رحمة بالأنهار!

رحمة بالمعامل!

رحمة بهذا الكتاب

الذي أثار مشاعر أجيال!

رحمة بالحبّ

حتى ولو كان لضغينة

هذه المرأة

التي تركتني

وحيداً

أمام كون عينيها!

رحمة!

حتى ولو للقلب الخائبة

أو لأكثر الرغبات جنوناً.

رحمة بالرسائل

التي تأتي بآخر الأخبار

وبالأيدي التي تنتظر متهلة!

رحمة



خاصّة بأولئك الذين ليس عندهم بعدُ.

جيل

ولدنا

حين قرّر

أجدادنا — سادة الغابة —

أن يُقرّبوا بين مساكنهم

ليُحدّثوا قليلاً

في نهاية النهار.



خطاب ممل

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

إلى الشعب المابونشي

لم أكد أنظف عيني

من غبار الهزيمة

حتى وجدت نفسي من جديد

مع النصر.

دفاعاً عن كولون

لمستأن أو ثلاث لمسات

لم يكن الذنبُ ذنب كولون.

هو فقط بحث عن التوابل

عن لمستين أو ثلاث لمسات لمائدة السيد.

وعثر على أمريكا:

طبق حقيقي عظيم

بلا توابل،

بلا أملاح ولا فلفل أسود.



رضوان نصّار^(١)

"عمل متهافت"

رواية

■ ترجمة : علي إبراهيم أشقر ■

نعرض في هذه الصفحات لكاتبين أمريكيين من أصل عربي.

أولهما "رضوان نصّار" روائي وقاصّ برازيلي من أصل سوري لبناني، لخصّنا إحدى رواياته "عمل متهافت" وترجمنا صفحات منها. نلمس عنده نظراته القائمة لجيل المهاجرين الأول الذي ظلّ متشبّهًا بعاداته وتقاليده، خاصة سلطة الأب الطاغية في الأسرة.

وثانيهما "ماتياس رفيد" الشاعر والناقد والباحث وأستاذ علم الجمال ونقد الشعر في جامعات الشيلي، وعضو المجمع العلمي في ذلك البلد. وهو من مدينة القدس ترجمنا بعض قصائده. وهو على عكس الأول يبدي إعجابه بملحمة هؤلاء المهاجرين الرواد جوايبي الأفاق.

(١) هو ابن مهاجرين سوريين - لبنانيين، ولد في بيلتوراما وهي إحدى المدن الصغيرة في ولاية ساو باولو في البرازيل. عمل في مجالات عدة، وسطع نجمه في دنيا الأدب 1975 بظهور هذه الرواية "عمل متهافت". وله بعض الأعمال الأخر منها "خصلة غضب" وهي قصة طويلة.

والجامع بينهما الأصل المشترك، ونشأتها في مدن الأقاليم الصغرى ثم الانتقال إلى العواصم.

علي إبراهيم أشقر

تتأسس الرواية على محورين اثنين: تداعي الأفكار والمونولوج في الجزء الأول (الرحيل)، وعلى الحوار والحكاية في الجزء الثاني (العودة). يطلها أندريه المراهق المصاب بالصرع يهجر البيت فراراً من أسرة بطريركية حيث سلطة الأب ليست محل نقاش، وهي تقوم على الأوامر والنواهي وظلمة الجسد ونور الروح وأداء الواجب ووحدة العائلة والمائدة المشتركة، حتى "حول البيت إلى معبد"، أما هو فيمثل الوجه الآخر للأسرة، الوجه المتواري في الظل والمستبطن في الرياء.

تبدأ الرواية منذ منتصف زمنها، أي منذ وصول الأخ الأكبر الذي تقارب سلطته سلطة الأب، إلى البنسيون ليعود بالابن الضال إلى الحظيرة. خلال اللقاء ورحلة العودة، نتعرف من خلال تداعي الأفكار على طفولة أندريه وعلى أفراد أسرته وعلى مناظر المزرعة وأدوات الحياة اليومية.

عودة الخريف الأسود إلى الحظيرة لا تشير إلى تغير ما في موقف الأب الذي لم "يتعلم شيئاً ولم ينس شيئاً"، نلمس ذلك من خلال الحوار بين الابن وبين أبيه الذي يعود إلى نغمته القديمة في وحدة العائلة والأرض والعمل وتبيان مقدار ضلال ابنه وانحرافه عن سواء السبيل، خاصة أنه كان قدوة سيئة لـ"تولا" أخيه الأصغر الذي صار يفكر هو الآخر بالرحيل. وتنتهي الرواية بمشهد مأساوي أثناء حفلة رقص تتكرر مرتين في الرواية: في نهاية الفصل الخامس منها، وفي خاتمتها، لكنها هنا تتوج بقيام الأب بقتل ابنته "أنا" إثر وسوسة الابن الأكبر في أنذ أبيه أن علاقة عاطفية تربط بين البنت وبين أخيها أندريه. وتطلق من الصمت الكتيب الذي حل إثر تلك الفعلة الشنعاء: "صرخة كأنها صرخة طلق أو صرخة وليد".

أبي!

وتتطلق من صوت آخر، من عواء كهفي مملوء باليأس
أبي!

وتتطلق الأنة الضعيفة من كل صوب: من روسا، ومن زليخا وهدي
أبي!

وكانت نغاء مخنوقاً

أبي! أبي!

أين أماننا؟ أين الحماية لنا؟

أبي!

ورأيت لولا ممرغاً في التراب:

أبي! أبي!

أين وحدة العائلة؟

أبي!

ورأيت أمي وقد طار لبها، تنف ذوايب شعرها.. وراحت تئن بلغتها
الأصلية مطلقة نحيباً عمره آلاف السنين ما زال يجوب شواطئ البحر
المتوسط البائسة: وكان في صوتها كلش، وكان فيه ملح وكان فيه ألم
الصحراء الرملية!

في هذه الجملة الأخيرة نلمح الصراع بين جيل المهاجرين الأول المتمسك
بعاداته وتقاليد الشرق وبين جيل الأبناء الذي يريد أن يفتح على عالم جديد.
يتكئ الكاتب في ذلك على علم النفس: الكتب وعقدة أوديب في شكلها غير السوي
وعشق المحارم، إلخ..

وفي الختام، تمثل الرواية من جهة الأسلوب مغامرة يحاول فيها رضوان
نصار أن يستدع لغة جديدة وأن يطابق بين بنية النص والعبارة. وقد فرض
المونولوج وتداعي الأفكار إيقاع النص المتواصل من غير وقف ولا انقطاع، وإنما

هي جمل متتابعة تشكل فصولاً قصيرة تبلغ أحياناً صفحات معدودات، وأحياناً نصف صفحة فقط.

وقد عربنا منها بعض الصفحات علّها تعطي فكرة عن أسلوبها وإيقاعها الفني.

••

العنان محدقتان في السقف، والعري في الحجرة؛ الحجرة الوردية والزرقاء أو البنفسجية منيعة، والحجرة فردية، عالم، حجرة كاتدرائية، حيث تنكمش في راحة اليد بين فترات القلق المتقطعة عقدة شريط غليظ القوام، على شكل وردة بيضاء يائسة⁽¹⁾، لأن بين الأغراض المقدسة في الحجرة الأغراض الشخصية أولاً؛ كنت مضطجعا على أرض حجرتي الخشبية في بنسيون قديم من بنسيونات الأقاليم، لما وصل أخي كيما بعيدني؛ كانت يدي تمسح قبيل وصوله، مترددة نشيطة وبنظام قاس، جلد جسمي للرطب، وكانت أناملتي تلمس وهي ملأى بالسم الرطب الثابت في صدري الذي ما زال حاراً؛ كان رأسي يدور متعباً بينما الشعر يسقط في موجات كثيفة فوق قوس الجبهة الرطب؛ استندت بأحد خذي إلى الأرض، لكن عيني أمست لا تريان غير قليل ما إن فقدنا السكينة إزاء رفه الجفون السريعة، كانت ضوضاء الطرق على الباب تصلني ناعمة، وكانت تقترب خالية من المعنى، وكانت خسيوط الباتينا⁽²⁾ تنساب بين طيات الأذن حين كنت أغفو للحظات؛ وما كانت الضوضاء، التي تتردد دائماً ناعمة، هادئة، تعكر حلوة السكر، ولا نعاسي، ولا الدوار الخفيف اللذيذ الذي لا مفر منه؛ ورأت عيناي بعد ذلك قبضة الباب التي كانت تدور، لكنها ضاعت لما تحركت في شبكية العين كأنها شيء لا حياة فيه، وصوت لا اهتزاز له، أو كتفحة غامضة على كهف الذاكرة؛ وخلال لحظة كانت هزات تبعث في الفزع وثبت اليأس في

⁽¹⁾ شريط يوضع في العلق للترك يدعى الشريط المريمي نسبة إلى مريم العذراء.

⁽²⁾ نوع من الثبات حريري الخيوط يستعمل في الصناعة، ويقصد به هنا شعرة.

أغراض الغرفة الراقدة في سبات؛ فنيضت على قدمي بوثبة خفيفة صامتة، منحنيًا كيما أرفع المنشقة المبسوطة علي الأرض، وضغطت على عيني بينا كنت أجفف يدي وحركت رأسي فوراً كيما أحرك عيني، وتناولت القميص الموضوع على الكرسي، وأخفيت داخل البنطال عضوي الأسمر القاتم، ثم خطوط بضع خطوات وفتحت أحد مصراعي الباب ورجعت أفق خلفه. كان ذلك أخي الأكبر في الباب؛ ولما دخل ظللنا واقفين كل منا إزاء الآخر وقد جمدت عيوننا، وكانت فسحة من الأرض القاحلة تفصل فيما بيننا، وكان خوف وذعر في ذلك الغبار، لكن ذلك لم يكن اكتشافاً، ولا أدري ما هو، ولم ننسب بكلمة إلى أن بسط نراعيه، وقبض في صمت بيديه القويتين على كتفي وتبادلنا النظرات، وفي لحظة محددة هجمت ذاكرتنا على عيوننا بغباء، فرأيت عيني تتبدلان بالدمع بغثة؛ كان ذلك لما عانقتي، وأحسست في ذراعيه بقل أزع العائلة الثقيلة الملوثة بالطين كلها؛ وتبادلنا النظرات مرة أخرى وقلت "ما كنت أنتظرك" هذا ما قلت من غير أن أدري ماذا كنت أقول، وقد ملئت خوفاً من أن يزل مني شيء فيما أقول، ومع ذلك رددت "ما كنت أنتظرك" هذا ما قلت مرة أخرى، وأحسست بقوة العائلة الطاغية تتهاول فوقسي كعاصف مطري ثقيل، بينا كان يقول "نحن نحبك كثيراً، نحبك كثيراً" هذا كان كل ما قال. لما عانقتني مرة أخرى؛ كنت ما أزال مضطرباً طائش اللب لما أشرت إلى الكرسي في الزاوية، لكنه لم يحرك ساكناً وقال وهو يخرج المندبل من جيبه "زرر القميص يا أندريه".

كنت في سبات الأماسي الفارغة في المزرعة، أتخذ لي مكاناً في الغابة أفسر إليه من عيون العائلة المتوجسة، وكنت أطفئ حمي قدمي في الأرض الرطبة وأغطي جسمي بأوراق الشجر وأضطجع في الظل وأنام بهدوء نبتة مريضة انتشت تحت ثقل مرضها العنيف؛ ألم تكن جاناً جذوع الشجر السااهرة على حلمي، الصابرة في صمت حولي، وما هذه الصناديق القديمة التي تطلق الأصوات الحارة تدعوني إليها من الشرفة؟ ماذا يجنون من ذلك

الصراخ إذا كانت هناك رسل أسرع وأنشط تمتطي خيراً منها مقن الهواء، مفسدة خيوط الفضاء؟ (حلمي الذي صار ناضجاً قد يتلقى بلذة دينية كاللذة في قطف ثمرة).

وتذكرت أنني كنت أستمع دائماً إلى مواعظ الأب بأن العيون هي مصباح الجسد، فإذا كانت صالحة فذلك أن الجسد فيه نور؛ وإذا لم تكن العيون صافية فإنها تكشف عن جسد مظلم، وكنت أعلم وأنا أقف إزاء أخي مستشفقاً رائحة خمر نفاذة أن عيني صارنا جوزتين مقزّزتين، لكني ما كنت أبه بأن يكونا كذلك فقد كنت مضطرباً، بل كنت ضائعاً، ووجدتني بغتة أصنع أشياء، فأحرك يدي وأجوب الحجرة وكان اضطرابي مبعثه الفوضى المنتشرة إلى جانبي: فرتبت الأغراض فوق المنضدة، وسمحت سطحها بخرقه، وأفرغت منفضة السجائر في السلة، وسويت غطاء السرير وطويت المنشفة عند رأس السرير وكنت راجعاً إلى المنضدة لأملاً كأسين لما سهوت وكذت أساً عن "أنا"، ولو فعلت لكان ذلك اندفاعاً متهوراً مفاجئاً، لكن، كان بإمكانني أن أسأل حقاً كيف جاء إلى البنيويون واكتشف هذا البيت العتيق، أو أحاول أن أعرف على شكل ساذج سبب مجيئه، غير أنني لم أفكر في شيء من هذا، لأنني كنت مظلماً من الداخل، وما كنت أستطيع الخروج من لحم أحاسيسي، وكنت على يقين من شيء واحد قرب المنضدة هو أن عيني أثيرنا بالخمير الذي كنت أسكبه في الكأس؛ "مصاريع النافذة" قال لم هي مغلقة مصاريع النافذة؟ قال: من مقعده في الزاوية حيث كان يجلس، ولم أتردد طويلاً فهرعت لفتح النافذة، وكان في الخارج بقية من مساء غضّ وبارد تقريباً شكلته شمس ليفية وبرتقالية اللون صبغت على شكل كبير بنر ظلمات حجرتي، وكنت ما أزال أغلق ألواح المصاريع بكلاهما لما هاجمتني نوبة أولى خفيفة، لكنني لم ألتفت لها فقد كانت عارضة، ولذلك فكرت في أن أنهى مهمتي، وبأدبرت من ثم إلى أن أضع بسخاء وبشيء من السخرية بين يديه قنحاً رائعاً من الخمر؛ وبينما كان نسيم مزعج ينفخ الستائر المطرزة

بطراز سميك يرسم على ارتفاع متوسط ملاكين يتسلقان السحب وينفخان في بوقين ساكنين وقد انتفخت وجنتاهما، جلست على طرف السرير خافضا عينيّن كسيرتين، أما عيناه المملوءتان نوراً فكانتا تنصبان عليّ لا شك في ذلك، وهذا ما سمّني حتى انتابتي موجة قصيرة وهادئة هدّنتني عن قرب ودفعتنني حتى كدت أحته صارخاً "لا تكبح نفسك، يا أخي، واعثر على الصوت الجليل الذي تبحث عنه، واستعدّ رزانتك، واكشف القناع عن وجهي، وحطّم بلاطة البيت القديمة بين عينيّ لكنني لزمّت الصمت ظناً مني أنني إذا حتّته فسوف تكون حماقة وفوق ذلك هو عبث، وسقطت في التفكير في عينيها من غير وعي، في التفكير في عينيّ أمي ساعات المساء الأكثر صمتاً، حيث حنان العائلة كلها وكراهيتها أيضاً يقفان وجهاً لوجه. وتذكرت لما فتحت باب حجرتي في لحظة غامضة صورة أمي تبعث حزينة تقريباً "لا تظّل في السرير، يا قلبي، لا تجعل أمك تتألم، كنّمني" وأحسست بدهشة وفزع أني قد أنفجر باكياً في كل لحظة، وخطر في ذهني أن أنتهز بغيّة سكر لم يفزعهم مجيء أخي كيما أعترف له ربما بورع "إنه هذياني، يا بدورو، إنه هذياني إن شئت معرفة ذلك"، لكنها كانت موجة عبرت رأسي وجعلتني أفرغ كأس في جرعتين سريعتين، وشرعت أنا الذي كنت أحسب عبثاً قول أي شيء بالاستماع إلى صوت أخي هادئاً صافياً كما يليق به (هو كان يتولّى الرسالة السامية بإعادة الابن الضالّ إلى حضن العائلة)، وكان صوته صلاة يصلّيها حين شرع في الكلام (كان أبي) عن كلّ كائناتنا وحجارتها.

سودانيسا (أو تشودا) كانت: متينة البنية، هكذا؛ وكانت تقطن تحت سقف مسنّم من السابّ الغليظ والمذهب، داخل سور محاط بعدد خشبية مغروسة جيداً، كل عمود منها إلى جانب الآخر، وكانت تواتيني الجراة على أن أتجسس عليها من خلال الفجوات في الزمان الأول؛ وكانت تغسل لسانها وتشرب الماء في إناء من الطين الطري يُجدّد كل صباح؛ وكانت ترقد على

سرير مجهز جيداً بالعشب الجاف العطر اللين، وتريح رأسها عليه إذا ما شرعت الشمس تصب شواظها خارج السور؛ وكان لها قصعة نظيفة دائماً توضع فيها ذرة مستقاة من بين الحصيد، وعشب أخضر كنت أدعه بالبقدونس لاستفاد ما عندها من شهية؛ أول مرة رأيت فيها سودانيسا بعيني المريضتين كانت ذات مساء أخرجتها فيه بين الشجيرات المزهرة التي كانت تحيط بحجرتها الريفية وقدتها بحرص محب غيور وكانت تتبني طائعة تطل الأرض بقوامها ذات الكعاب، وجسمها العريض يتأرجح ويرتج واقفاً على عمد سيقانها المتناسقة جيداً؛ شرعت أعني بجسمها عند المساء غامراً يدي الملوئتين بالبدال في جفنان فيها دهانات ذات روائح مختلفة، ثم كانتا تختفيان سريعاً في شعرها الناعم المخطط. لكنها لم تكن عنزاً داعرة، بل كانت عنز طفل ذات ثدي سمين منتفخ، تعرض باهتزاز جسمها عورتها القاتمة، كانت كلها جسدية إذا ما طاف المشط فوق شعر جسمها اللطيف المموّج، كانت عنزاً مزجة، وكانت ذات زلمتين ولها ذيل قصير هو قطعة من العصعص اكتسبت بهاب جيد سريع التأثير بأدنى لمسة من أصبع، وألطف مداعبة؛ كانت تبدو منحوتة من قطعة واحدة إذا ما اعترض فيها الصبور قضيب غض وراحت تمضغه ليس بأسنانها وإنما بالزمن؛ وتصبح حينئذ عنزاً من حجر ينطبع في عينيها خطان من حزن، أو جفنان طويلا سودان، وتسمى في هذا الوضع الصوفي عنزاً كتب لها أن تكون هكذا؛ سودانيسا جلبت إلى المزرعة للتهجين، فوجدت نفسها في شغل عن ذلك، كانت تحتاج إلى عناية خاصة، وخطوت في ذلك الوقت وأنا مراق خجل أولى الخطوات خارج مكان معتزلي؛ وخرجت من عطالتي وسميت نفسي راعيها الغنائي منتبهاً حرمتها: فأضفيت جمالاً على شكلها، وبريقاً على شعرها وأهديت إليها أطواقاً من الزهر، وطوقت عنقها الطويل بأمطار من (ديتيو -- ده -- مساو كاثيتانو)⁽¹⁾ بثمارها المرتعشة والمتدلية

(1) يشير إلى جملة من النباتات المتسلقة والزاحفة.

كالأجراس؛ وكانت تشودا الصبور جد كريمة لما كان قضيب آخر سري وداعر وأكثر انتفاخاً يبحث بالاحتكاك بجسمها عن إقامة ميثاق معه.

الحب والوحدة وعملنا جميعاً إلى جانب الأب كانت رسالة الطهر المتقشفة المحفوظة في هيكل معبدنا؛ كانت تنقل إلينا كل يوم بجلال ونحن نتناول فطورنا في الصباح، ونحن نقرأ كتبنا في المساء؛ كان أخي يضع نصب عينيه نقاء هذه الحكمة الورع، ويتابع صلاته مشيراً في كل خطوة على شكل خفي إلى عدم نضجي في الحياة، متكلاً عن العثرات التي يتعرض لها كل منا، ومن الطبيعي أن يحدث ذلك، لكن من الهام ألا ننسى أيضاً الخواص العاطفية والروحية التي تشدنا إلى بعضنا، فلا نسمح لأنفسنا بالخضوع إلى الإغراء، محترسين من السقوط (ولا يهم من أية طبيعة كان)، هذا ما يتطلبه الحذر، هذا على الأقل الجانب الواجب على كل عضو، وهو الضريبة المفروضة على كل منا، إذ يكفي أن نزل قدم أحدنا حتى تسقط العائلة كلها خلفه؛ وقال إذا كان البيت في وضع جيد، فإننا جميعاً في وضع جيد، ولإبقاء البيت قائماً على قدميه لا بد لنا من تقوية الإحساس بالواجب باحترام رابطة الدم التي تجمع بيننا، فلا نبعد عن بابنا ونجيب أبانا إذا ما سألنا، ولا نشيح بأعيننا عن الأخ الذي يحتاج إلينا، ونشارك في عمل العائلة جالبين الثمار إلى البيت، متكاتفين في تزويد المائدة المشتركة، وينبغي لنا أن نفسح المجال دائماً ضمن دائرة نمط حياتنا المتقشف، لكثير من الأفراح بدءاً من أداء مهام غير منوطة بنا، ومن يتهرب من متطلبات الواجب المقدسة يحكم عليه بجرم كبير؛ تحدث أيضاً عن الرغبات المنعزلة لكل منا، لكن لا بد لنا من لجم الدوافع السيئة، والاعتدال بحكماء في الجودة منها، فلا نفقد التوازن مراعين السيطرة الذاتية على النفس، محترزين من الأنانية والأهواء الخطرة التي تصاحبها، محاولين العثور على حل لمشاكلنا الفردية من غير أن نخلق مشاكل أخطر لمن هم موضع تقديرنا؛ ومن أجل تسوية كل حالة، لدينا دائماً الجذع نفسه واليد المخلصة وكلمة الحب وحكمة مبادتنا من غير

أن نحسب أن أفق الحياة لم يكن واسعاً كما كان يبدو، وفي حالتي كانت وهماً تلك السعادة التي قد أكون لمحتها خارج حدود أراضي والدنا؛ كان أخي يتحاشى أن يعرف دوافع هربي القاسية لكنه كان يوحى على شكل خفي بأن خطواتي كانت قدوة سيئة لـ"لولا" آخر العنقود، والذي كانت تطلعاته قريبة من تطلعاتي، وراح يضفي نفحة حارة على عظمته كيما يذكرني أن في العفو قوة أشد مما في الإساءة، وفي الإصلاح أكبر مما في الخطأ مبيّناً أن هذه الأمور ينبغي لها أن تكون الوجه السامي للطبع الجيد وقفاً، وبمناسبة عودتي فعلى عائق الأسرة يقع العفو وعلى عاتقي إصلاح الخطأ، أنا الابن الضال "لا تعلم ما حدث لنا خلال فترة غيابك، وسوف يفزعك وجه العائلة الكابي؛ قاس جداً أن أقول لك ذلك يا أخي، لكن أمك لم تستطع أن تخفي أنيها على أحد" قال وهو يمزج التائب بإحساس بالحنان يزداد شدة، هو الذي كان يمضي صاحباً راسخ القدم ورسيناً إلى حد ما (كأبي)، بينما كنت أستسلم إلى دوار سريع مفكراً في زائد العائلة الهزيل، وقد جرّدت من قوتها القديمة، وربما وجدت لحظة من الضياء وسط ظلمتي لما راودني الشك أنني كنت أستهلك في غرفة في بنسيون، آخر مذكرات العائلة من بذار الأرض؛ بدافع من غروري ولتقص في غذائي الروحي؛ لم تخبر العائلة أحداً برحيلك، وأحسن كل منا أكثر من الآخر ساعة الغذاء على المائدة ذلك اليوم بتقل كرسيتك الشاغر؛ لكننا ظللنا ساكنين وعيوننا مطرقة، والأم تُعد أطباقنا، ولم يجرؤ أحد منا على السؤال عن مكانك؛ كان مساء متعباً ذلك المساء من العمل مع الأب، وكانت أفكارنا مشغولة بصورة أخواتنا في البيت ضائعات بين أعمال المطبخ والتطريز على الشرفة والعمل على آلة الخياطة، أو يرتبن غرفة المؤونة؛ وما كان يهّم أين كن، فقد صرن غير ما عهدناه بهن ذلك اليوم، لما كان يملأ البيت مرحاً، فاضطروا إلى البقاء على تلك الحالة من الاستسلام والحزن؛ يجب عليك أن تكون هناك، يا أندريه، عليك، أن ترى الأب متمرساً في صمته؛ فما إن فرغ من الطعام حتى ترك المائدة وذهب إلى الشرفة، ولم يره أحد ينسحب منها وظل قرب الدرابزين واقفاً

ناظراً إلى ما لا يُعلم في الليل المظلم؛ ولم أدرك مبلغ ما حدث إلا ساعة النوم لما دخلت حجرتك وفتحت صوان الملابس ووجدت الدروج فارغة؛ وكان ذلك بداية تفكك العائلة" ثم كف عن الكلام وكنت أعلم سبب انقطاعه، فقد كان يكفيني النظر إلى وجهه، لكنني لم أكن أنظر إليه، وأنا أيضاً كان لدي أشياء في داخلي تستحق أن يُنظر إليها، كان بإمكانني أن أقول "تفككنا بدأ منذ فترة سابقة هي أبعد مما نظن، بدأ أيام كان إيماني ينمو نمواً حاداً في طفولتي، وكنت أكثر حماساً من أي شخص آخر في البيت" أستطيع أن أقول ذلك باطمئنان، لكن الوقت غير ملائم للتفكير في منافع الإيمان الغامضة، والنيبوس بجوانبه المتراخية، واستهلاك سرّ الجسد والدم متحريراً لذة التقوى وارتعاشاتها، ومع ذلك أخذت أفكر في حزام جمعية الأخوة المريمية الذي كنت أضعه وأنا طفل تقي، إلى جانب السرير قبل النوم، وفكرت أيضاً كان الله يوقظني في الساعة الخامسة كل يوم كيما أشارك في القداس الأول، وكيف كنت أظل مستيقظاً حزناً على أخوتي الزائدين في الأسرة الأخرى من غير أن يحظوا بالنعمة التي أحظى بها، متسللاً بالغمّة التي تتدفق من الفجر مكتشفاً في كل موجة من ضوء التهار أشباح الصور السحرية المرسومة أعلى الجدار كأنها حاشية موشاة، وما كنت أنتظر شيئاً سوى أن تدخل أمي الحجرة تقول لي مرات كثيرة "استيقظ يا قلبي" وتلمس جسمي مرات عدة بلطف وأنا أنظاها بالنوم، ثم أتشبّث بيديها مرتعشاً، وكانت أيدينا تشكل تحت الغطاء لعبة رقيقة، وكنت أضحك، وكانت، هي المفعمة حباً، تقول لي هامة "لا توقظ أخوتك، يا قلبي"، ثم كانت ترفع رأسي وتضعه على وسادة بطنها الدافئ وتنتشي بجسمها الضخم وتقبل شعري قبيلات كثيرة، وما إن أنفض حتى أجد الله قربي على المنضدة الليلية الصغيرة، وكان إليّ يمكن أخذه بيدي وأطوق به عنقي ويملا القلب، وكنت أدخل الكنيسة وأنا طفل كاثي منطاد، كان جميلاً نور طفولتنا الأكيّف ذلك، والخبز المنزلي على المائدة والقهوة بالحليب والزبدة، وبهاء بيتنا، المشعّ هذا الذي كان يبدو لي أكثر إشعاعاً لما كنت أعود من القرية، ذلك البهاء الذي صار يثير في

الاضطراب فيما بعد ويجعلني غريباً أحرص ملقياً بي في السرير منذ البلوغ كأنسي ناقه، "هذه الأمور لم تخطر ببال أحد في حدود بيتنا" كاد يزلّ لساني بها، لكنني فكرت مرة أخرى بعيث قول أي شيء، في الحقيقة كنت عاجزاً عن قول شيء. ولما رفعت بصري رأيت أخي يُغرق عينيه في كأسه، وقال من غير أن يتحرك وكأنه يردُّ على نداء نظرتي: "كلما كانت العائلة أمتن بنياناً كانت السقطة أعنف، لأن قوة العائلة وفرحها يمكن أن تختفي بضربة واحدة" هذا ما قاله وقد كسا وجهه حزنٌ فجائي ثم توقّف، وبُعِثت في مخيلتي بتدفّق تلقائي أيام الأحاد الصحابية زمان كان أقرباؤنا في المدينة ينتقلون إلى الريف مصطحبين خير الأصقاع ويجتمعون في الغابة خلف البيت تحت أطول الأشجار التي كانت تشكل والشمس لعبة مرحّة لطيفة من الأضواء والظلال، وبعد أن تتبدّد رائحة الشواء بين أوراق الأشجار الوارفة الكثيرة، كان يطوى الغطاء المفروش فوق العشب الهادئ، وكنت أستطيع أن أرافق منزوياً عند أبعد جذع، الاستعدادات السريعة من أجل الرقص، والحركات القلقة لذلك الفريق من الشبان والشابات وبينهن أخواتي بينهن الرقيقة وملابسهن الزاهية الخفيفة تملأهن وعود بحبٍ موقوفة بسبب طهارة حبٍ أكبر. وكانوا يجرون بظرف يملأون الغابة ضحكا حاملين سلال الفواكه إلى حيث كان الغطاء مبسوطاً من قبل ثم يتقاسمون خُز البطيخ والبطيخ الأحمر ويقطفون الأعناب والبرتقال من البستان في هذه السلال التي ترتب بعناية في وسط الفسحة علامة يدور حولها الرقص. وكان سامياً ذلك الفرح مع الشمس تتحدّر ومعصورة بين الأوراق والأغصان، فرح ينسكب أحياناً على الظل الهادئ عبر شمعة كبيرة سامية ذات ضوء جميل ينعكس بحدّة على الوجوه الرطبة، حينئذ تتعقد حلقة الرجال أولاً، فيشمر أبي عن زراعيه جامعاً حوله أكثر الشبان يفاعه ممسكين بأنزع بعضهم البعض القوية ويشبكون أصابع أيديهم انصلبة ببعضها مشكّلين حول الفواكه محيط دائرة صلبة كأنه محيط عجلة عربية ثيران بارز سميك، ثم يُقبل عمي المهاجر العجوز الذي كان راعياً في طفولته فيخرج من جيبه الصغير مزار قصب

دقيق فيمسك به يديه الثقيلتين، ويشرع حينئذ في العزف عليه كعصفور، فينتفخ خذاه كأنهما خذاً طفلاً، ويزدادان انتفاخاً أكثر فأكثر، وكان يوحى وجهه المستورد بأنه سيسكب كل الخمر الذي شربه من أذنيه كما من صنبورين، وعلى صوت المزمار كانت الحلقة تشرع بالحركة ببطء، أولاً باتجاه معين ثم في اتجاه معاكس، مجربين شيئاً فشيئاً قوتهم في حركة ذهاب وإياب قاسية وعلى إيقاع دوس أقدام أصم قوي، تنق الأرض دقا برجولة، إلى أن يطير صوت المزمار فجأة ويجتاز الغابة مسحوراً ويمتد في مدى العشب الأخضر ويجلد المراعي، حينئذ كانت تسارع الحلقة المرتعشة من حركتها وتكمل الدائرة كلها، وتكف عن أن تكون الآن دولا ب عربية ثيران، وإنما هي دولا ب طاحون كبير أخذ يدور على محوره مرة أخرى، أما العجائز الحاضرون وكذلك الفتيات اللاتي كن ينتظرن دورهن، فكانوا يصفقون بأكفهم ويزيدون في قوة الإيقاع الجديد وما كانت تبطن "أنا" النافذة الصبر والمندفعة وذات الجسم القوي والزهرة الحمراء كعلقة دم مشبوبة بشعرها الأسود الحر الذي فرقته إلى جهة واحدة، أختي هذه كانت مثلي وخلافاً لأفراد البيت الآخرين، تحمل الطاعون في جسدها، وكانت حينئذ تخترق الدائرة الرافضة، ومن ثم كنت أستطيع أن ألمح خطواتها الدقيقة الغجرية منزلة وسط الحلقة وهي تنتهي بين فواكه السلال والأزهار لامية الأرض بأطراف أصابع قدميها الحافيتين رافعة ذراعيها فوق رأسها وهي تحوى ببطء ترافقها سقسقة مزمار تزداد بطناً وتموجاً ويدها الظريفتان تدوران أعلى رأسها، وقد ملئت أناقة وحشية وكانت أصابعها تطلق كأنها صنّاجات، أو الأصل الذي جاءت منه الصنّاجات، وكانت الحلقة حولها تدور بحركة أكثر تسارعاً وهذياناً، والأكف المصفقة أكثر حرارة وقوة وجراً، وكانت أنا تتوهم مغناطيسياً فتخطف منديلاً من جيب أحد الشبان وتنتشره بيدها المرفوعة فوق رأسها بينا جسمها كان يتلوى، أختي هذه كانت تحسن صنع الأشياء، فكانت تخفي سمها إخفاء جيداً تحت لسانها ثم كانت تعض على عنقود عنب متدل وتملاً حباته باللعباب بينا كانت ترقص وسطهم

جميعاً، جاعلة الحياة أكثر اضطراباً، ومحركة كوامن الألم منتزعة صيحات الإعجاب، ثم لا تلبث أصوات العجايز الأكبر سناً أن تعلو مترنمة بلغة غريبة بأشعار بسيطة تكاد تكون نشيداً دينياً، ويجرف التيار قاصراً لعباً من أبناء عمومتي فيأخذ غطائين من أغطية الحلال جاعلاً منها صنوجاً صاخبة، حتى كان يُخيل إليّ أن مالك الحزين والبط طارت من البحيرة، وقد سرت فيها عدوى الأصوات، لتتضمّ إلى كل من كان هناك في الغابة، وكنت أستطيع أن أتصور الفرحة في عيني أبي وقد رطب الخمر وقاره، وصار حينئذ على يقين أكبر من أنه ليس كل ما في عنبر المركب فاسداً، أما أنا الجالس على جذر مكشوف في أظلم ركن من الغابة، فكنت أدع الريح الخفيفة التي كانت تسري بين الأشجار، تدخلني عبر القميص، وتتفخ صدري، وكنت أحسّ في جبهتي بمداغبة شعري مداغبة حلوة، وكنت أتصور من بعيد وأنا بوضع مسترخٍ ظاهرياً، بشرة وجهها الطرية التي لها رائحة الخزامى وفيها الحلو كالبرعم، وقد ملئت حناناً وسراً، وسماً في عينيها كعيني بلح البحر، وما كان يكبح نظراتي كالحب، وكنت أفكّ حذائي وأخلع جوربي وأخذ أبعد بقدمي البيضاء النظيفتين الأعشاب الجافة وأبلغ طبقة الدبال الكثيف تحته، كنت أريد إرادة لا تكبح أن أحفر الأرض بأظفاري ذاتها وأضطجع في تلك الحفرة، على وجه الأرض وأغمر نفسي بالتراب الرطب، وما كنت ألمح في هذا الدرب المخفي متى كانت تبعد عن الجمع باحثة في كل الأنحاء بعينيها النجلاوين الحزينتين، وكانت خطواتها التي تقترب تختلط في البدء بضوضاء خجلة تصدر فجأة عن حيويونات تتحرك حولي في صخب وذي، وكنت أشعر بوجودها متى صارت قربي، وكنت أخفض حينئذ رأسي وأنتبه إلى خطواتها التي كانت تنقد بغتة سرعتها وتقلب خطأ بطيئة ثقيلة ساحقة بوضوح تحت قدميها الأوراق الجافة، وكانت تسحقني على شكل غامض من الداخل، وكنت أحس مدى لحظة بيدها الحارة الهادئة تنزع اللش عني أولاً، ثم تمسك بشعري وتمسده، وكان صوتها الذي ينبع من تكلمات الرحم ينطلق عميقاً في هذا المخبأ الذي أختبئ

محتبساً فيه، وكأنه نابع من داخل معبد بني بالحجارة، ولكنه مملوء نوراً سامياً ينسكب من الزجاج تعال، يا قلبي، وألعب مع أخوتك* وهنا كنت أقول هادئاً منطوياً دعيني، يا أمي، أنا أتمسلي*، لكن عيني المشحونتان مرارة لم تكونا ترتفعان عن أختي التي كان أخصما قدميها الحاران يطبعان علامات كانت تكويني من الداخل، فما كان أصفى ذلك العجاج وأنا أنظر حينئذ إلى قفا ذلك الزمان الذي مضى، هو ذات الوقت لما كنت أغض طرفي ذات يوم وقدماي مقيدتان كيلا أرى وجهها! وما أنقل هذه الزوادة على كتفي لما غادرت البيت! كنا نسير وهي لاصقة بمتي كأننا توأمان ملتصقان بظهرينا، أو مخ بيضة واحدة، ولنا عينان نتظران إلى الأمام، وعينان أخريان نتظران إلى الخلف، وكنت أرى أشياء بعيدة وأنا أنظر إلى أخي واقفاً هنا، وسوف أتخذ في خاتمة هذا المساء قراراً باتسأ بأن ألقى بنفسي في جوف تلك الساعة المترهل؛ ربما سأطلب إلى أخي الذي ما زال ليئلاً معي أن يذهب: تذكارات إلى العائلة* وسوف أطبق الباب وألتفّع بقماس الشمس اللين المنشور على أحد جدران الحجرة، وسوف أستمع بعد ذلك إلى الخمر وإلى مصيري محتتماً بهذا الغطاء.

<http://Archivebeta.Sakhi.com>

منذ هروبي وأنا أسكت ثورة غضبي، (فما أقسى سكوتي! وما أمتن نسيج غضبي!) وكنت في كل خطوة أبعد عن المزرعة، وإذا كنت أسأل نفسي شارد الذهن "إلى أين المسير؟"، فما كان يهمني أن أبلغ بعيني إذا ما رفعتهما، مناظر جديدة جداً، وربما أقل جفاء، وما كان يهمني أن أتجه في مسيري صوب مناطق تزداد بعداً، لكن لا مناص لي من أن أستمع بوضوح إلى حكم قاس صادر عن رغباتي، وكان حكماً حجباً وصلباً خالياً من كل حياة: "نحن ذاهبون إلى البيت دائماً".



ماتياس رفيده بطارسه⁽¹⁾ مقتطفات من شعره

■ ترجمة : علي إبراهيم أشقر ■

يخبّون على الصهوات في درب دمي

إلى أبوي سليمان وإيميليا

ARCHIVE

<http://ArabicBooks.net>

تخبّ في درب دمي

مئات الأجيال من جمالة غير منظورين

وأحس بالشرق يسقط في حشاي

ويطلّ على عيني قلق الضحراء.

وتجرحني رمالها العارية المالحة

(1) شاعر وباحث جامعي من أصل عربي. ولد عام 1929 في مدينة كوربيتو. بعد الدراسة الثانوية انتسب إلى معهد بيلايو النيني الذي ما لبث أن هجره. حصل على الدكتوراه من الجامعة المركزية في مدريد، وعين عام 1956 أستاذًا للغة القشتالية في الجامعة الكاثوليكية في الشيلي، ثم درس علم الجمال في مختلف الجامعات داخليا وخارجيا، وشغل مناصب إدارية تعليمية عدة، وانضم أخيراً إلى مجمع اللغة. من مؤلفاته: قلب شفاف (ديوان)، الرواية الإسبانية الأمريكية المعاصرة، منخل إلى الشعر الشيلي المعاصر.

وإيقاع خفي يهدد أحلامي
يستيقظ العود منتخباً في عروقي
ويذيب في النهر اللامتناهي بكاءه
والنخيل ينشر مظلاته الشمسية
كرايات نقية ترف فوق حقلي الجديب

(من ديوان الناعورة)

قصيدة V

عدت إليك اليوم
عودة نهائية.
وفي مرآة بسمتك
المنمردة تمخر عياني
بلطف.

خرجت ذات ليلة طويلة
بطيئة باحثاً عن نهر
عجيب مذهب ومثلكي

وكانت خطاي المحموعة
أشباحاً في الظلمة الدافئة.
لكن ذلك النهر لم يكن سوى

بريق سيف فارغ بارد.

وصرت في عودتي شجرة هامة
ذات اسم يهوي وحيداً نحو النسيان
لكنك فاجأتني بالقول:

"— ها هنا تنمو شجرة جديدة، ونهر
أزرق وهواء عال جداً
كفراشة ملكة شفافة"
كمالك شفاف

وأحسنت وسط القصب
الرقيق بصوتك
— شلالاً أخضر من الموسيقى —
<http://Archivebeta.org.uk/hit.com>

يملاً قلبي عصافير
مضيئة.

(من ديوان قلب شفاف).

عابر سبيل أسود

ينعطف الأسفلت
في النواصي الأخيرة
ويصعد عابر
أسود

في جيوبه
ينام رماد النهار.

وأضواء تومي
في المطر — أشباح
فتيات ضالات. —
وتترنخ الأشجار
في الطريق إلى عينيه.
والأفق يفرز
صوراً منبئة الفواجع.



ابنني في الظلام، تحمل
مفاتيح خفية في نومها
أية رياح ستهب
في الربيع؟

أو ستصعد الظلال
عبر نافذة سمائها الصغيرة؟

عينها تفكّان لغز

السنين الخفية.

هبات أمس

مضرب.

هل تهرب

الأرض ذات يوم؟

ليس كل شيء ينتهي في النهر.

موجتان سيهوي

بهما البحر ذاته على الشاطئ

موجتان من أمواج البحر.



عبد الشمس

يرفع عند الظهيرة

بسماته انصفر.

وينقلب في الليل

حمامة سوداء

مهجورة

(من سيرة ذاتية مصغرة)

كان يحب البحر

إلى أبي لما مات.

كان يحب البحر كما

يحب الأنهار. جاء من مكان قصي
معلقاً آماله على كل موجة.

بسمته شرفات

تمخر الهواء.

خلف وراءه عصافير

مسهدة، أصداء خطي،

أحلاماً غريبة في

مرايا مسرنة.

نُسمِعُ أصواتَ وسط

الغرق. خرائب

مدينة مهجورة

آه! يا وجهاً مأسوياً

يا وجه الموت الذي يمضي.

(من ديوان ما قبل العشية.)

ذلك الرجل

ذلك الرجل

بحقيبته المملأ بالخرز

هو قطعة من متحف

في مدينة تلتهمها التتينات.

لا أدري إن كنت أحد أجدادي الجوالين

أبناء الشمس والليل
سعودون من الصمت
أشباح مماثلة
ستزل شرفات
وأببالاً.
والذاكرة سوف تخترقها
مشاهد مألوفة، وسيخط
اسم واحد
إيماءات قديمة،
لا أدري إن كنت سلفي على الكوكب
أو عابر سبيل
جديداً ووحيداً.



(قصيدة غير مطبوعة.)

□□□

لوركا

الشاعر والعالم العربي الأندلسي

الكاتب: إنكارناثيون سانتشت

■ ترجمة: رفعت عطفة ■

وُلِدَ لوركا في حزيران من عام 1898 واغتيل بالقرب من غرناطة صيف عام 1936. لقد أصبحت سنوات عمره الثمانية والثلاثون، ونحن في فجر القرن الحادي والعشرين، بعيدة بما يكفي كي نقدر قيمة إبداعه الشعر، بكل عظمته. وترتبط قيمة هذا الإبداع بشكل عام وجزئي بموقف لوركا من التراث الثقافي الموروث: فهو منذ خطواته الأولى في عالم الآداب، فهم عمله الخلاق على أنه تواصل مع أفضل ما في التراث الثقافي الإسباني.

إن قوة العلاقة بهذه الكتلة الهائلة الموروثة تتعلق بالكيفية التي يقيم بها فريكو هذه العلاقة: ليست المسألة مسألة تقليد، مدرسية وسلبية إلى هذا الحد أو ذاك، بهذا الجزء أو ذاك من الميراث الإسباني، بل بوعي المؤلف الحي تماماً باستمائه إلى هذا التراث المتلقى وبالحاجة التي يشعر بها لأن يؤسس إبداعه على دعائمها.

لو حاولنا الآن أن نعرف الإحداثيات التي تشكل هذه الكتلة في المفهوم اللوركي سنرى أنها اثنتان بشكل أساسي. الأولى هي سقوط جدار الفصل بين الفن المستق وفن الشعبي الذي يقود الشاعر إلى أن يتناول بالحب نفسه نشيداً تراثياً فولكلورياً عجبياً - أندلسياً، أغنية مهد، حكاية طفولية مسرحية لكالدرون د لا باركا أو قصيدة أسطورية من قصائد غونغورا. الإحداثية الثانية هي سعة نظرة

لوركسا الهائلة لهذا التراث، الذي يضم المكونات الرئيسية الثلاثة للتراث الأسباني (المسيحي والإسلامي واليهودي) مع قبول جذوره وتنوعاته.

ويضمن فيريكو في هذه الجذور الثقافة الرومانية اليونانية، والتراث الشرقي ويخصّص ضمن هذا الأخير وقبل أي شيء اهتماماً خاصاً بالجذور الإسلامية، لكن أيضاً بالجذور التوراتية وكذلك للرصيد الطرطيسي والإيبيري.

وسيهتم فيريكو بكل هذا، لكن ليس من موقف تصنيفي أو نقدي بسيط، فتفكيره بهذا الميراث غير مفصول عن عبقريته الخلاقة. حتى حين يواجه هذا التراث كدروس أو متخصص، فالنصوص التي يقدمها تتطوي على طابع هو دائماً شخصي. يمكن أن نقولنا، كمثال على ذلك، قراءته لأعمال غونغورا التي قدمها في عام 1927 أو عروض المسرح الكلاسيكي الأسباني التي أخرجها في السنين الأولى من الثلاثينات، حين طلبت منه السلطات الجمهورية أن يُشكّل ويقود فرقة مسرحية جامعية (باراكسا الشبيبة)، التي جال بها على الريف الأسباني مقدماً كبار كتاب العصر الذهبي، من ثربانتس وحتى لوب د بغا وكالدرون وبيرسو د مولينا). وتظهر موهبته حتى حين يتعلّق الأمر بتحليل عالم غونغورا الشعري المعقد، مدة محاضراته القصيرة: يقود فيريكو النقاش عبر سبل هي من الأصالة بحيث أن رفيقه وصديقه الشاعر داماسو ألونسو لم يستطع أن يقاوم إغواء أن يؤكد أن تفسيره لغونغورا "نزوي قليلاً" وأنه "يبتدع ما لا يعرفه"⁽¹⁾

إذا كان الأمر كذلك حين يتعلّق الأمر بالتفكير النظري أو بإنجاز شيء حول عمل مؤلف بعينه، نستطيع أن نتصوّر ما يجري بالمواد التي يختارها فيريكو كمطلق لنص له: إن التحول الذي تعيشه هو من العمق بحيث أنه لا يمكن في كثير من الأحيان التعرف عليها. في أعماله الناضجة عادة ما يجري ما أكدّه دائماً في محاضراته المشهورة عن غونغورا، التي أشير إليها، أن: "غونغورا) يتصرف

(1) - الفقرة الأولى المنكورة عند داماسو ألونسو، غونغورا بين مؤيدين في الأعمال الكاملة المجلد الثامن، مدريد 1985، ص 693؛ والثانية من العمل نفسه، فيريكو غارثسيا لوركسا والتعبير الأسباني في شعراء أسبان معاصرون. مدريد 1969، ص 261.

بالتلميح. بصور الأساطير جانبياً وأحياناً لا يقدم إلا ملمحاً خفياً بين صور أخرى مختلفة⁽¹⁾.

بالضبط هذا ما نرى أنه يفعله في هذه العجالة في علاقته الخلقة بالمركب الإسلامي للثقافة الأسبانية، هذه العلاقة التي بدأ فيريكو بممارستها منذ طفولته.

حين يستقر منذ عام 1909 مع أسرته في غرناطة ستحملة أمه الموقوفة لتربية أولادها، إلى المسرح باستمرار. كانت تنتصر آنذاك المدرسة الحداثية في الأدب الأسبانية (التي كانت تمنح فضاء كبيراً لأكثر الغرائبيات تنوعاً) وكان أكثر أعضائها نشاطاً في أسبانيا فرانثيسكو بياسبسا، الذي حين قدم في عام 1911 عمله قصر الأولو، للمسرح الأسباني كان يعيد تقديم الصورة الرومانسية لغرناطة العربية بكلمات أكثر حلاً وحسية. يمسرح النص الأصول الأسطورية لتقصر الحمراء ويشد بقوة على طبيعة المختار عند مشهد البناء. وحين حضر لوركا مع صديقه ميغل أنخل أورتيث في العام 1911 ذاته عرض المسرحية الأول في غرناطة، أذهشه بعمق التألق والفخامة البصرية للحفلة (التي لعبت الدور الرئيسي فيها ماريّا غررو، أشهر وأعلى منبة في عصرها)⁽²⁾.

تنوَّست الحمراء الموجة الغرائبية الجديدة التي راحت تشتغل عليها الحداثية وتبرز أسطورتها الآن بخاصة القيمة المعمارية للبناء المرتقي إلى مستوى الرمز لحضارة. هذا التخصيص للتخييل الشعري بالنسبة إلى أكثر أماكن الثقافة الأسبانية الإسلامية تميزاً سوف يترك أثره في عقل المراهق فيريكو.

(1) - فيريكو غارثيا لوركا، الصورة الشعرية عند نون لويس غونغورا في أعمال، المجلد السادس، طبعة ميغل غارثيا، نوسادا، مدريد، اكال، 1994، ص 253.. مدريد، 1969، ص.

(2) - يان جيبسون، حياة، عاطفة وموت فيريكو غارثيا لوركا، مدريد، الورقة 2003، ص 52 - 54.. سوف يروي أخوه فرانثيسكو بعد سنوات أن المسرحية أثرت في فيريكو بعمق "حتى أنه لبس إحدى خاديمات البيت ثياب عربية وجعلها تشد مرةً وأخرى أكثر أشعار بياسبسا إحياء" (54).

ثم إن عملية شعير (إضفاء الشاعرية على) الفضاء الإسلامي الغرناطي تحدث أيضاً في اللغة الموسيقية. ونحصر اهتمامنا بالمثل الأكثر جلاله، بكلود ديبوسي الذي يركز فضاء علاقته بأسطورة غرناطة (التي لم يزرها قط) في مساء في غرناطة (1903) وفي باب الخمر، المقطوعة التي شكلت جزءاً من الكتاب الثاني من الاستهلاكات (1923). لوركا الذي طالما كان مولهاً بديبوسي، كان يقول بثبات بأن الموسيقار الفرنسي استطاع بهذين العاملين أن يترجم موسيقياً ليل غرناطة الإسلامية بشكل ساحر، على الرغم من أنه لم يزر المدينة قط⁽¹⁾.

تلك هي المواد، إلى جانب مواد أخرى كثيرة نستطيع أن نذكرها (أراض شمسية (1904) لروبن داريو، مثلاً)⁽²⁾، التي راحت تغذي النظرة الغرناطية للوركا الياق؛ في نصوص نشره الأولى، النصوص المكرسة للمدينة يشرح منها حزن رومانسي؛ إنها غرناطة المسيحية المعاصرة للمؤلف المراهق التي تحدد مكانه وزمانه من خلال الموسيقى المتنوعة للنواقيس اللامتناهية، التي تحاول في لادعيا أن تطمس تلك الأصوات الأخرى المينة، أصوات المؤننين:

من مكعبات الحمراء يظهر حي البيلازين بقاءاته، وأروقته العتيقة، التي تمر فيها راهبات [...] ليل بريق سحري من فوق هذا البرج الكبير [...] ينزل حزن موجع وحتمي فوق دور البيلازين وفوق المنحنيات الحمراء والخضراء لقصر الحمراء وجنة العريف... ويمضي متبدلاً لونه، بلا انقطاع ومع تبدل اللون يتبدل الصوت... هناك أصوات وردية، أصوات حمراء، أصوات صفراء وأصوات أصوات، وألوان مستحيلة... بعدها هناك تناغم أزرق عظيم... وتبدأ سيمفونية النواقيس الليلية. إنها مختلفة عن سيمفونية الصباح. للشغف حزم كبير... يكاد يأتي صوته جميعها منهكاً، وهي تدعو لصلاة السبحة... يُغني النهر بقوة، أنوار شوارع البيلازين المتألثة تمنح سواد أشجار السرو ارتعاشات ذهبية. تطلق لا بلا أغنيته التاريخية... في الأبراج تظهر أنوار جبانة تضئ لقارعي النواقيس...

(1) - العمل المذكور 56 و604.

(2) - هذا هو أحد البلدان التي يُصنعها المرء... جيبسون ص، 61.

يصفر القطار بعيداً.

نناقوس لا بلا الذي يسود منذ عصر النصريين مخاطر الغوطة، ينتهي الآن بأن يسيطر أيضاً ببطوة على النواقيس الكاثوليكية [عقل تطلق هو المختار]. ينتصر تاريخ هذه المدينة الإسلامي منذ هذه النصوص النثرية الأولى، حتى دون أن يُذكر. يضع فديريكو أسطورة مملكة غرناطة جانبياً، مقتصراً على استلهاهم الهيبة، التي مازال يُمارسها القصر الأحمر عبر نظرة الشاعر، المتمركز هناك، وعبر صوت ناقوس — ساعة الحمراء.

بالتزامن مع هذه الكتابات الشعرية التي يعيش فيها لوركا ضمنياً الميراث الأسباني — الإسلامي للأندلس، يُظهر الشاعر اهتماماً دقيقاً بالثقافة الإسلامية بلا زيادة يتبلور في مقال تعليقات حول عمر الخيام الذي نشر في المجلة الغرناطية لستراس، يوم 30 تشرين الأول 1917 والذي وقّعه فديريكو باسم أبو عبد الله المستعار⁽¹⁾. وإنه لمن الموحى أن يكون المقال الأول الفكري، الذي يكتبه لوركا حول أمور أدبية عظيمة، مكرساً للشاعر الفارسي.

جاءت هذه المقالة الصغيرة حصيلة القراءة المباشرة لأشعار الخيام، التي كان فديريكو يملك في مكتبته نسخة من الطبعة الثانية منها باللغة القشتالية⁽²⁾،

⁽¹⁾ — فديريكو غارثيا لوركا، نثر، 1 الأعمال الكاملة، المجلد السادس. طبعة ميغل غارثيا بوسادا. مدريد، أكال، 1994، ص 66 — 69. وحول ذلك هناك مقال قصير لـ يان جيبسون: مقال محتمل لوركا عن عمر الخيام فيكوندرونوس هيسانوأمريكانوس⁴³³ — 436. المجلد الأول ص 37-39.

⁽²⁾ — من رسالة مائول فرنانديث — مونتسينوس غارثيا الجامعية وصف مكتبة فديريكو غارثيا لوركا (لائحة ودراسة) (رسالة الإجازة، جامعة كومبلوتنس. مدريد 13 كيلول 19859 نملك تفاصيل حول نسخة شعر عمر الخيام التي استخدمها لوركا. وتتعلق بالطبعة الثانية للترجمة القشتالية التي قام بها كارولس موثيو سانت — بئيا، مع مقدمة لـ روبن داريو وروسول لويث ناغيل. وقد صدرت هذه الطبعة في مدريد بإشراف فرانثيسكو يلتران، المكتبة الأسبانية والأجنبية، برينثيب 19، وتحمل الورقة الأخيرة تاريخ 1916، ويشير فرنانديث.. كونتسينوس أيضاً في رسالته الجامعية إلى الرباعيات

وهي ما تزال موجودة؛ يقيم فيريكو مع الشاعر حواراً في الوقت الذي يفسر الموضوعات الرئيسية التي عالجها الشاعر الفارسي (التمتع بالحاضر، اختيار للخمر وللحب كثروا من حقيقتين من ثروات الوجود الخ)؛ يرى لوركا الخيام وكأنه غارق في وحدة الوجود الدينية ويسميه "خطأ الروحانيات" و"الأرحم" (1) ويقارنه بـ بودلير ويشيد بعظمته وأرستقراطيته (2).

وإن النظرة إلى الشرق عبر الخيام تجسد مبادئ الغرناطي الأدبية التي تتكشف عنها أول قصيدة كتبها، أغنية، وحلم وتشوش (3):

كانت ليلة سحر تامة.

ليلة ذهبية في الشرق القديم،

ليلة قبل، نور ودغدغة،

ليلة مجسدة من تول عاطفي.

وكان على جسدي ألم وورد.

عينك كانتا الموت والبحر.

فمك! شفتاك. قافاك، عنقك....

حلم تسبيح الجزائر ودمشق

كان يُعطرُ ناعلاً قلبنا.

جدانك كانت تقول لنا

المعلمة بقلم لوركا: وينكر يان جيبسون، مقال محتمل عن عصر الخيام للوركا، العمل المذكور ص 38، الترجمات الأولى في المجال الإيري كانت لـ بييس باستور إلى الكتالانية (1907) ومارتينث سيرا إلى القشتالية (1907).

(1) — تعليقات على عصر الخيام عند فيريكو غارثيا لوركا، الأعمال الكاملة، الجزء السادس، المذكور سابقاً ص. 66 — 69.

(2) — المصدر السابق

(3) — هذا رأي أخيه فرانسيسكو غارثيا لوركا في فيريكو وعالمه، مدريد أليانثا، 1981، ص 162.

عن نجوم عاطفتك العظيمة⁽¹⁾.

فيريكو في هذه المحاولات الأدبية الأولى هو أسير نظرة رومانسية متأخرة وروبن دارية للشرق روماني (بالطبع لم يكن من الممكن أن يكون بطريقة أخرى، إذ حتى العبارة العظام عليهم أن يدفعوا ضريبة لمرحلة التعلم، التي تمر بالضرورة بتقليد النماذج السابقة). لكن ما يهمني أن أؤكد عليه هنا هو أن الشاعر يحلم في جذر كتابته بالشرق الإسلامي وأن هذا الشريان سوف يساير كل مسيرته الأدبية التي تبرز في لحظات محددة فقط.

يلور فيريكو منذ عام 1922 نظرة أدبية أكثر شخصية للشرق الإسلامي، إلى هذه اللحظة تعود محاضراته (الأولى بين المحاضرات التي ألقاها) المعنونة بـ الأهمية التاريخية والفنية للغناء الأندلسي البدائي المسمى بـ "الغناء العميق"، وهذا، حسب لوركا، نموذج في غاية الغرابة من الغناء البدائي، الأقدم في أوروبا كلها، الذي يحمل في نغماته العاطفة العارية والمقشعة للعروق الشرقية الأولى⁽²⁾. ويذكر ما نول تافيا كمرجع ويستند إليه كي يدعم رأيه⁽³⁾ بعدها يركز اهتمامه على مضمون الكوبلات ويبحث ويستعد للقيام بالمقارنة بين نصوص من الغناء العميق ونصوص من الشعر الغنائي الإسلامي حين يؤكد: أن "جميع قصائد "الغناء العميق" تنطوي على وحدة وجود رائعة؛ تستثير الهواء والأرض والسماء، القمر والأشياء التي هي ببساطة الرياح والبنفسج والعصفور"⁽⁴⁾ ويعتبر أن الكوبلات حين تدرك أعلى درجاتها تتأخر بالتعبير مع الأشعار الرائعة

(1) - فيريكو غارثيا لوركا قصائد الشباب غير المنشور. طباعة كريستيان بيب، مدريد كاترا 1994، رقم 1: أغنية وحلم وتشوش ص. 2 - 27

(2) - الأعمال الكاملة المجلد السادس المذكور ص 209.

(3) - الموسيقار فاياء، الذي درس المسألة بعمق والذي اهتمت به، يؤكد أن لا سيفيرتا الفجرية هي أغنية جماعية "غناء عميق" ويصرح بشكل قاطع أنه الغناء الوحيد الذي حافظ على نغائه في قارتنا، سواء في بنائه كما في أسلوبه، هذه هي الخصائص التي تحمل في ذاتها الغناء البدائي للشعوب الشرقية" (المصدر نفسه).

(4) - المصدر نفسه.

للشعراء العرب والفرس⁽¹⁾ وتلقني في مواضيع التضحية، الحب اللامحدود والخمر⁽²⁾ ويعطي بعدها أمثلة من شعراء عرب (سراج الوراق وابن رباتي)⁽³⁾ ويضيف أن "هذه الرقة تتجلى وتلقني في مصادفات ليست غريبة أبداً في غزالات الحب الرفيعة عند حافظ الشيرازي، الشاعر القومي الفارسي الذي تغنى بالخمير والنساء الجميلات والحجارة الغامضة، والليل الأزرق اللانهائي في شيراز⁽³⁾. يُقارن فيريكو بين نصوص حافظ الشيرازي ونصوص الغناء العميق، مركزاً على ما يُسميه "الهواجس الغنائية" شعر الحبيبة، النحيب، نحيب الدم، الحب فيما وراء الموت.

ويُنهي استعراضه للشعراء الإسلاميين بحبيبه عمر الخيام، الذي يذكره بمناسبة موضوع الخمر.

طبعاً يتحفظ لوركا تماماً عن القيام باتساقات دقيقة بين هؤلاء الشعراء وشعر الغناء العميق الشعبي. على العكس كان يصبر دائماً على أن الأمر يتعلق بـ بتمثيلات ومصادفات ويوضح قائلاً: لقد استخدم الفن منذ أقدم العصور البرقيات دون أسلاك ولا مرآيا النجوم⁽⁴⁾.

ليس مستغرباً أن يتواصل لوركا مع الترجمات القشتالية لهؤلاء الشعراء الآسيويين، نظراً لشغفه بالقراءة واختكاكاته الغرناطية. لقد روى فيريكو ذلك على الشكل التالي: لقد شكّلت قراءة هذه الأشعار الآسيوية التي ترجمها غاسبار ماريا د نابا والمنشورة في باريس عام 1838 هؤلاء تأثراً عظيماً بالنسبة إليّ، لأنها سرعان ما ذكرتني بقصائدنا العميقة جداً⁽⁵⁾.

(1) - المصدر نفسه.

(2) - إنها مختارات من القصائد العربية والفارسية والتركية ترجمت عن الترجمات الإنكليزية عن الأصل ونشرت في باريس عام 1833 (جيبسون، حياة، شعر وموت، المصدر المذكور ص 163).

(3) - أيبي ص 223.

(4) - المصدر المذكور.

(5) - أيبي ص. 225.

فسي مسامرات مقهى رينكونتيو، حيث كان يلتقي الشاعر بمجموعة الشعراء الذين كانوا يريدون أن يجددوا المنتج الثقافي في المدينة، كان هناك متأنق منقذ مبالغ. باكيتو سوريانو لا بارسا، الذي تمتع بمكتبته الغنية جداً جميع المتسامرين. بين هوايات باكيتو سوريانو الأدبية كانت تبرز اللغات والأدب الشرقية؛ ربما علم فديريكو بالكتاب القديم عبر صديقه وبالتأكيد قرأه قبل عام 1922، لكن أحد أعضاء هذه اللقاءات المخلصين كان نابارو باردو، أستاذ كرسي اللغة العربية في غرناطة، الذي لا شك أن وزنه في وضع تعريف لحساسية جديدة تجاه الماضي الإسلامي لمملكة غرناطة كبيراً بين الشباب المتسامرين. كان أعضاء رينكونتيو يتطلعون إلى أن يحلوا نهائياً محل الثقافة الرسمية، التي كانت ما تزال تنتج صوراً مقولبة عن غرناطة الإسلامية، مشبعة بالرومانسية البائسة والمضجرة، وذلك من خلال البحث بجذبة أكبر عن الجذور الخاصة، هذا البحث الذي كان يمرّ بتقويم الميراث الفلكلوري ومعرفة بفرناطة النصرية معرفة أكثر عمقاً وأكثر فيلولوجية⁽¹⁾.

هذان العنصران سوف يصبحان حاسمين في نشاط لوركا الشعري وإن كان

(1) — موحية من هذه الناحية الرسالة التي كتبها فديريكو في أوائل تموز 1922 لصديقه العزيز ملتشور فرنانديث الماغرو الذي كان قد استقر في مدريد: "سنجتمع هذه الليلة لتناول العشاء في مطعم أولتيمو جميع أعضاء رينكونتيو [...] الفكرة التي ستعرض هذه الليلة على كل الموجودين في الوليمة (أنا لا أستطيع أن أقاوم) هي التالية: لكن لا تكلم بها أحد حتى تتبلور [...] المسألة تتعلق يا عزيزي ملتشور، بأن ننشئ على أرض يقدمها سوريانو في مزرعته في ثوبيا رباطاً على شرف ابن طفيل والثنين أو ثلاثة آخرين من عباقرة الثقافة العربية الغرناطية. سيوضع داخلها مكتبة موضوعات عربية غرناطية، وسيزرع في الخارج حول النصب صلفاص ونخيل وسرو. يا لمساعدة أن ترى، يا ملتشوريتو، من الباب الملكي لقبة البيضاء للرباط ترافقها منمنة الصغيرة! ثم إنه سيكون الذكرى الأولى التي تقام في إسبانيا إحياء لهؤلاء الرجال المغظام، إلى ملتشورات فرنانديث الماغرو، غرناطيون الأصلاء، الذين يملؤون اليوم عالم الإسلام، كاد نابارو بيكي ليلاً من سعائته [...] إلى ملتشور فرنانديث الماغرو (5) في رسائل كاملة. أندرو أ. اندرسون وكريستوفر ماورر (ناشرون) مدريد، كاتبرا 1997 ص 147 - 150 (148 - 149).

في لحظة معينة: إن تقويم الميراث الفلكلوري سيجد موضوعاً مناسباً في هذه الملحمة الملونة بألوان قوس قزح ذات الأصداء الكلاسيكية، هو أناشيد العجر، بينما العمل بموضوع الهوية الإسلامية لغرناطة سوف يبرز في مراحل مختلفة، كبرهان على اهتمام متواصل من الشاعر بالميراث الثقافي للمدينة، من الواضح أن هذا الاهتمام سوف لن يظهر إلا في مفاسل معينة من كتابات فيريكو، متبلوراً، كما قلنا، في نصوص مرحلة الشباب، كي تتبلور بانتصارية عام 1935 مع ديوان تامریت.

هناك إذن نثار أرضي للنهر الغزير الذي هو شعر لوركا، هذا التيار الذي يغذيه نبع أصوله الغرناطية هذا، لكن وبينما يدرك الموضوع العجري معالمه (ذات القيمة الفائقة) في عام 1928 مع أناشيد العجر ويستغف نفسه في هذا الديوان⁽¹⁾، فإن الموضوع الآخر وكأنه خيط أريدنا، سوف يرافق عملياً كل دائرة إبداع الشاعر. بما في ذلك بعد أن نشر ديوان تامریت، قبل أشهر من اغتياله. يعود لوركا ليتكلم عن ضياع غرناطة كضياع لهوية لا تعوض: كانت لحظة في غاية السوء:

حتى ولو قالوا عكس ذلك في المدارس لقد ضاعت حضارة وضاع شعر وعلم فلک وعمارة ورقعة وحيدة في العالم، كي تفسح الطريق لمدينة فقيرة، مذعورة، لـ "أرض del chavico" حيث تتحرك الآن أسوأ برجوازية في أسبانيا⁽²⁾.

وهناك من يؤكد أن هذه التصريحات التي أدلى بها لوركا إلى صحيفة بمكانة لا بأس كانت أحد الأسباب (بين أسباب أخرى كثيرة وشديدة اللبس) التي كان لها وزنها ساعة سجن واغتيال الشاعر الصاعق: وحسب هذا التفسير لم تتحمل القوى الأكثر رجعية في غرناطة الكاثوليكية عام 1936، هذه المقارنة المسيئة لسمعة

(1) — هناك تصريحات تعتبر بوضوح عن هذه الإرادة النهائية لإنهاء هذا الموضوع الذي ملحه شهرة كبيرة.

(2) — مقابلة أجراها لويس باغاريل "سول 10 حزيران 1936".

الحاضر والممّجة لماضي المدينة الإسلامي.

ما يهتمي الآن، ودون أن نتوقف عند هذه المسألة الشاقة والمؤلمة، هو التأكيد على استمرار حضور ما يمكن أن نسميه: "مسألة غرناطة" في عالم الشاعر الذهني وكيف أن هذه المسألة تقود فضول لوركا الفكري نحو الشرق الإسلامي.

عندما عاد لوركا من أمريكا، في عام 1930 وقد بلغ نضجه العجيب، يتقاطع هذان العنصران موقراً الظروف المثالية لإبداع عمل بارع يتوّج اهتمام الشاعر الداخلي بالشعر الإسلامي، هذا العمل البارع هو ديوان تامريت.

جزء من النقد يعزو دفق هذه الموجة الشعرية الجديدة إلى قراءته لكتاب قصائد عربية أندلسية، الذي ترجمه المستعرب إميليو غارثيا غومث ونشره في عام 1930 بالضبط⁽¹⁾. ميغل غارثيا - بوساد، ناشر أعمال لوركا الرقيق، يؤكد بقناعة أن: "ظهور تصاميم أسلوبية جديدة - يعود - إلى مجموع الشعر العربي العظيم في الأندلس"⁽²⁾. ماريو هرنانديث يرى عكس هذا، ربّما كان أرفع ناشر لأعمال لوركا، والذي يورث شهادة فرانثيسكو غارثيا لوركا، الذي يقول بأن أخاه تصوّر الديوان حتّى قبل أن يكتب شيئاً من قصائده، وهذا ما يتفق مع الاهتمام المبكر للشاعر بالموضوع العربي والموريسكي، كخليفة للإنسان الغرناطي" ويفكر أنّه "ربّما ارتكز مشروع الكتاب في أصله إلى القراءة السابقة على عام 1922 لما سبّسميه "غزالات حافظ الرفيعة"⁽³⁾ وإلى عام 1922 تعود أيضاً رسالته إلى مَلتَشور هرنانديث ألماغرو التي يقول فيها أنّه في ذلك الصيف يريد "أن يخرج من الظل بعض الصغيرات العربيات اللواتي يلعبن في هذه القرى وأصبع في هذه

(1) - إميليو غارثيا غومث قصائد عربية - أندلسية، مدريد بلوتاركو، 1930 ماريو لافرانك... ص 282، يشير أن كثيراً من هذه الترجمات كان قد نشرها في عام 1928 في ريبستا دش أوكثنت (أي مجلة الغرب).

(2) - طبعة مذكورة ص 83.

(3) - فيريكو غارثيا لوركانيون تامريت (1931 - 1935) بكائية على إغناثيو سانثيت مخيئاس (1934) سونيئات (1924 - 1936) طباعة ومقدمة وملاحظات ماريو هرنانديث، مدريد أليانثا، 1989، ص 32.

الغابات الصغيرة الشخصيات المثالية للأناشيد المجهولة المؤلف⁽¹⁾.

ومع ذلك يبدو أن لوركا بدأ عند عودته من نيويورك وكوبا يكرس وقتاً أكثر لمشروعه. تأخر خمسة أعوام حتى أكمل مجموعة قصائده الأندلسية ويضع، في أول قراءة لبعض هذه النصوص في برشلونة من عام 1935، عنواناً فرعياً هو "قصائد غرناطة"، وهو تفصيل ذو معنى يدعم ما أقوله. في عام 1934 كان بالإضافة إلى ذلك قد أخبر غارثيا غومث بتأليفه للكتاب، تماماً كما رواه هذا عندما أشار إلى عشاء في غرناطة مع الشاعر وأصدقاء آخرين بعد قراءة فيريكو لـ يرمّا: في الحديث المشحون بالكهرباء الأدبية، كانت تسمع بشكل متكرر أهات غرناطة الثلاث. وبينما نحن نتكلم ونتكلم — كانت تتبقي خلف صورتنا عن المدينة الحالية — كما خلف تلك الصور الهندسية، حيث الطنف الخفية تعلم بخطوط من النقاط — فكرة غرناطة الأخرى، غرناطة الماضي، المنقاة في الفرضية، حيث كان يغني أناس آخرون بلغة أخرى وعلى صوت فيفارات أخرى.

متبادلين الحديث حول مشاريع أدبية كنت أقول للوركا أن هدفه هو أن أخصص كتاباً لعربي عظيم — ابن زهر — الذي نشرت قصائده في أفخر طبعة يعرفها العالم: الحمراء ذاتها، حيث تغطي الجدران وتزين القاعات وتحيط بجرن النوافير. عندئذ قال لنا لوركا أنه ألف تكريماً لهؤلاء الشعراء الغرناطين القدماء مجموعة من القصائد والغزالات، أي ديواناً، وأنه سيسميّه ديوان تامريت، باسم مزرعة تملكها أسرته، حيث كتب الكثير منها⁽²⁾.

يقدم لوركا في هذا الإعلان للأصدقاء خبراً دقيقاً عن هيكل تأليف كتابه، إضافة إلى أنه يوضح العنوان الذي يأتي بالنتيجة تمجيداً لذلك المكان العائلي الأصيل الخاص، بستان تامريت كمكان لإبداع القصائد: قصائد غرناطة مكتوبة في غرناطة الغوطية العميقة، وليس في المدينة، تمجيد هذا المكان الحميم كجو مناسب

(1) — إلى ملتشور فرنانث ألماغرو (5) العمل المذكور ص 148.

(2) — إميليو غارثيا غومث ملاحظ على "ديوان تامريت" عند فيريكو غارثيا لوركا/ ديوان تامريت (1931 — 1935) بكاثية على إغناثيو سانتشيد مختّاس (1934) الطبعة المذكورة ص 53 — 54.

للإبداع الشعري، لهذا الإبداع الشعري المحدد، المكان المثالي لإعادة إبداع أجناس الشعر العربي الكلاسيكية من منظور معاصر، دون أن يقدم أي شيء للمدرسية العقيمة، للتقليد المحال المستعلق بالأدب؛ هذا الفضاء الأندلسي للحزام الثري لغرناطة هو *Iocus amoenus* الذي يرشح روحاً أندلسية يحضن الشاعر ويقدم إليه السكن التام، حيث يقوم بالتحويل الاستثنائي الرائع للشعر الغنائي الأسباني – العربي إلى واحد من معالم الشعر الأسباني الحديث.

وهكذا فإنه إذا كانت وجهة نظر غارثيا – بوسادا *condivisible* حين يؤكد أنه "من العبث أن نحاول أن نعزو هذا الاستشراق في ديوان تماريت إلى تأثيرات بسيطة؛ يبدو من المناسب أكثر أن نفكر بالتوافقات، نتاج، وهذا صحيح، التعقيد العالي لخيال لوركا"⁽¹⁾، ومن ناحية أخرى من المناسب أن نكون حذرين من الفرعة النقدية الأسبانية للوركا لتحجيم أبعاد هذه التوافقات.

هناك إرادة عند الشاعر لتقويم هذا الجذر الشرقي في كتابه الذي يظهر بوضوح في عنوانه: ديوان وفي تقسيم القصائد بين جنسين شعريين عربيين مشهورين: القصيدة والغزاة؛ طبعاً ما كان لوركا ليتنظم قصائد وغزالات مكيفاً إياها مع متطلبات الوزن الذي يملكه هذا النوع من النظم في الشعر الغنائي العربي؛ لكن حتى الدارسين للوركا في هذا الجو ليس أمامهم من مجال غير أن يعترفوا أنه يولي اهتماماً خاصاً لأبعاد الغزالات، ربّما أخذاً بالاعتبار تعريف غارثيا غومث المقتضب لـ "الغزاة – المستخدمة بشكل أساسي في الشعر الغنائي الفارسي – هي قصائد قصيرة، موضوعها التسيب، وتتفق مع بعض القواعد الفنية، وأبياتها أكثر من أربعة وأقل من خمسة عشر بيتاً"⁽²⁾. يبدو أن الجميع متفقون على أن لوركا قسم الديوان إلى قصائد وغزالات منتبهاً إلى المواضيع: الغزالات ذات مضمون غرامي والقصائد متنوعة الاستلham باستثناء

1

(1) – ميغل غارثيا بوسادا، الطبعة المذكورة ص 86.

(2) – إميليو غارثيا غومث ملاحظة على "ديوان تماريت" عند فريكو غارثيا لوركا، ديوان تماريت (1931 – 1935، الطبعة المذكورة ص 54.

موضوع الحب.

أشارت ماري لافرانك أيضاً إلى الإيقاع البطيء في نصوص الديوان كإرادة واعية لاستعادة حركة الشعر الغنائي العربي المميزة وماريو هرنانديث، في تعليقه الثري على الكتاب كثيراً ما يشير إلى هذه الحركة البطيئة.

لكن التحول يتم في مجالات أخرى، في المواد التي تكون جو الصورة أو في استخدام الكثير جداً للصورة الشعرية والتي كثيراً ما تغطي أبياتاً بكاملها... وخاصة في خلق جو وفضاء رمزي ذي نطاق ضيق جداً وكوكبي في آن معاً.

يدور أحياناً هذا الذي نسميه تصادف الروح شعري⁽¹⁾ حول Sema التي تشكل مركز المقطوعة التي يصب في كل شيء، كما في غزاة الحضور الرهيب:

أريد للماء أن يبقى بلا مجرى.

أريد للريح أن تبقى بلا وديان.

أريد لليل أن يبقى بلا عيون

وقلبي بلا زهرة الذهب.

أن تتكلم الثيران مع الأوراق الكبيرة

وأن تموت الدودة في الظل.

أن تلمع أسنان الجمجمة

والأصغر يغمر الحريق.

يمكنني أن أصير ألم الليل الجريح

متعاركة بالتحام مع الظهيرة.

أقاوم غروباً سُمه أخضر

والأقواس المحطمة حيث يعانى الزمن.

لكن لا تريني عريك التنظيف

(1) - العبارة لـ غارثيا - بوسادا، الطبعة المنكورة ص 88.

مثل صبار أسود مفتوح بين الخيزران.

دعيني في حزن كواكب غامضة

لكن لا تُريني خصرك المياس!

"الخصر المياس" الأخير هو محور بناء كل المقطوعة الحقيقي. إنه مرادف للتفصيل، جزء من جسد الحبيبة الذي تبنى حوله عدة قصائد عربية — أندلسية مضممة في مختارات غارثيا غومث، مثل قصيدة المعتمد ملك إشبيلية (1069 — 1091م):

وليل بسدّ النهر أنسا قطعته بذات سوارٍ مثل منعطف النهر

نضت بردها عن غصن بان منعم فيا حُسن من شقّ الكمام عن الزهر

يجمع الخصر أيضاً نظرة الحبيب في بداية هذه القصيدة الأخرى للأمير الأموي مروان بن عبد الرحمن الطليق" المعقود عنه (المتوفى في عام 1009م):

غُصْنٌ يَهْتَزُّ فِي دِعْصٍ نَقَاً يَجْتَنِي مِنْهُ فَوَادِي حَرَقَا

أو أبيات قصيدة حبيبة النقيه القرطبي أبو حفص ابن عمر، قاضي قرطبة وإشبيلية في عصر الموحدين:

وأذكرُ قَدْها فأتوح وجداً على الأغصان تستدب الحمام

لكن عند منتصف القصيدة التي يعنونها غارثيا غومث باسم قصيدة النجوم لابن هاني البيري (المتوفى في عام 973) رقم (38) نقع على الكلمة الدقيقة التي ينظم حولها لوركا غزاته مستعيداً بأبهة ما يمكننا أن نسميه "جمالية المقطع":

أَلَيْتَنَا إِذَا أُرْسِلَتْ وَارِداً وَحفاً وَبِتَنَا نَرَى الْجُوزَاءَ فِي أذُنْهَا شَنْفاً

وَبَاتَ لَنَا سَاقٍ يَقُومُ عَلَى الدُّجْدِ سَى بِشَمْعَةِ نَجْمٍ لَا تَقْطُ وَلَا تَطْفَى

أَغْنُ غَضِيضُ خَفَّفَ اللَّيْنِ قَدَّهْ وَثَقَلَتِ الصَّهْبَاءُ أَجْفَاتَهُ الْوُطْفاً

وَلَمْ يُبْقِ إِرْعَاشُ الْمُدَامِ لَهُ يَدَا وَلَمْ يُبْقِ إِعْنَاتُ التَّنْثِي لَهُ عَطْفَاً

يقولون حَقَفَ فوقه خيزرانةً أما يعرفون الخيزرانةَ والحَقفا
جعلنا حشايانا ثياب مُدامنا وقدت لنا الظلماء من جلدها لُحفا
فمن كيدٍ تُدْسي إلى كيدِ هوى ومن شفةٍ توحى إلى شفةٍ رشفا
بعيشك نَبْه كاسنه وجفونهُ فقد نُبْه الإبريق من بعد ما أغفا
وقد ولت الظلماء تغفو نجومها وقد قام جيشُ الفجر لليلِ واصطفا
وولت نجومٌ للثريا كأنها خواتيم تبدو في بنانٍ يد تخفى.

هنا ليست المفردة القاموسية بل العلامة السمعية مماثلة لعلامة لوركا: هذا الخصر الذي يشكل محور كلِّ التَغني بجمال الساقى الذي يرافق الزوجين العاشقين يلخص كل ملاحظة الغنى، الذي لا يمكن في النهاية أن يُقاوم بالنسبة للشاعر الحديث في قصيدة الحضور الرهيب.

وإذا ما أضفنا إلى كلِّ هذا وجود أسباب أخرى (الماء المتحرك) ووجود كونية ليلية جبارة (صراع بين الليل والفجر، انتصار الغروب، تشبيه الليل الذي يملك عيوننا عند لوركا وأذنين عند ابن هاني) تبدأ نرى كيف يجب أن نفهم تلك التقاطعات التي يتكلم عنها غارثيا — بوسادا، هذه التقاطعات التي يصعب تفسيرها إذا لم يؤخذ بالحسبان عمل مكون مواد قراءات جديدة وقديمة المنضمة بوعي إلى العملية الإبداعية. "اليد المختبئة" (يد تخفا) التي تختتم قصيدة ابن هاني البيري الغاية في الجمال (اللبيرة، المدينة المتاخمة لغرناطة بالمناسبة) لها علاقة كبيرة بتلك اليد السماوية الأخرى التي يخصها لوركا بـ "قصيدة اليد المحالة":

أنا لا أريدُ إلا يداً واحدة،
يدا جريئةً إن أمكن.
أنا لا أريدُ إلا يداً واحدة،
حتى ولو قضيتُ ألفَ ليلةٍ دون قرأش.
ستكونُ زنبقُ شاحبةً من كلِّس

ستكون حمامةً موثقةً إلى قلبي،
الحارس الذي سيمنع
في ليل عبوري الدخول إلى القمر منعاً باتاً.
أنا لا أريد إلا هذه اليد
للزيت اليموي وملحفة احتضاري البيضاء.
أنا لا أريد إلا هذه اليد
كي يكون لي جناح لموتي.
كل ما عداه يمر،
ما عداه خقر بلا اسم، نجم سرمدٍ
ما عداه الآخر؛ ريح حزينّة،
بينما الأوراق تهرب أسراباً⁽¹⁾.

يستخدم لوركا بشكل خاص تركيبات مصدرها هذه المواد وعامة ما يصب
فيها المعنى الذي كانت تملكه في الشعر العربي - الأندلسي، يمجّد هذا التراث
بالعودة إلى استخدام مفردات لها مجال رمزي مماثل للذي كان لها، ويهجرها
وسط عالم جديد، يمنعها من الاستمرار بالقيام بوظيفتها كما في السابق. إنه لا
ينكر قيمة تلك المناخات، لكنه عندما يربطها بمناخات أخرى (كثيرة) جديدة،
يطفئها:

غزالة الحب القاطط.
لا الليل يبقي أن يأتي

(1) - في مديح المعتمد ملك إشبيلية - ابن عمار الشلبي رقم 13) هناك تصوير لليد دون

جسد:

صنق لطلّ على ردام أخضرا
سيف ابن عباد بيّدت عسكرا

روض كنّ النهر فيه معصم
وتهزّ ريح لصبا فتخاله

كي تأتي أنت،
 ولا أنا أستطيع الذهاب.
 لكنني سأذهب
 حتى ولو أكلت شمس العقارب صدغي.
 لكنك ستأتين أنت
 محروقة اللسان بمطر الملح
 لا النهار يريد أن يأتي
 كي تأتي أنت،
 ولا أنا أستطيع الذهاب.
 لكنني سأذهب
 وأسلم فرنقلتي المعضوضة للضفادع.
 لكنك ستأتين
 عبر بواليع الظلمة العكرة.
 لا الليل يريد أن يأتي ولا النهار
 كي أموت لأجلك
 وتموت لأجلي.

هذا التركيب الموازي التام⁽¹⁾ يفتت موضوع اللقاء الليلي للحبيبين، الذي
 تعالجه القصيدة التي تحمل عنوان زيارة الحبيبة لابن حزم القرطبي (994 –
 1064) رقم (23) بهذا الشكل:
 أتيتني وهلال الجو مطّلع قبيل قرع النصارى للنواقيس
 كحاجب الشيخ عمّ الشيب أكثره وأخصم الرجل في لطف وتقويس

(1) – العبارة لميغل غارثيا – بوسادا. الطبعة المذكورة ص ٢٢٢

ولاح في الأفق قوسُ الله مكتسباً من كلِّ لونٍ كأذْ ناب الطواويسِ
موضوع الزيارة الذي يميل إلى السلبية في هذا المقطع من القصيدة النونية
لابن زيدون القرطبي:
أضحى التناهي بديلاً من تدائنا وناب عن طيب لقيانا تجافينا
بنتم وبناً فما ابتلت جواتحنا شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا
حالت لفقدكم أيامنا فغدت سوداً، وكانت بكم بيضاً ليالينا
كأننا لم نبث والوصلُ ثالثنا والسعدُ قد غصَّ من أجفانِ واشينا
سرَّان في خاطر الظلِّماء بكتنا حتى يكادُ لسانُ الصبح يُفشيها

يفجّر لوركا طاقة وقوة هذا التجافي الناتج الآن عن عوامل كونية (الموجودة أيضاً في قصيدة ابن زيدون) والتي تنتهي بأن تقود إلى موت الحبيبين. لكن تعدّد الأسباب – الموانع أمام لقاء هذين (المؤرّعة بشكل جدّ عبر نظام التوازي) ينتهي بالعودة إلى عرض موضوع الزيارة من جديد، العدو للدود للحبيبين/ الموجود في مقطع ابن زيدون العظيم منسالة الموضوع الذي يضعه بشكل ضيق جدّاً لوركا في عزلته المرتبط بموضوع زيارة الحبيبة يسيطر أيضاً على القصيدة التي تحمل عنوان عتاب (رقم 19) للخليفة عبد الرحمن الخامس المستنصر (المتوفى عام 1024):

طال عمرُ الليلِ عندي منذ تولعت بصدي
يا غزالاً نقض الو ذ ولم يوف بعهد
أنسيت العهد إذ بت نها على مفرش ورد
ونجوم الليل تحكي ذهباً في لآورد

وإلغاء الزمن ("لا النهار ولا الليل يريد أن يأتي") في الغزاة اللوركية التي تنتهي بتوليد الموت المفهوم على أنه حضور يشغل نفي الزمن والحركة، العناصر

التي تسيطر بالمقابل على كل القصائد العربية — الأندلسية.

إن الترصد أو الحضور الخالق للموت يخترق الديوان اللوركي بقوة تغلب معنى رموز الحياة، كالماء، الحاضر بمجال معنوي واسع سواء في الشعر الغنائي العربي — الأندلسي أو عند لوركا. لنرى كمثل غزاة الطفل الميت:

كل مساء في غرناطة،

كل مساء يموت طفل

كل مساء يجلس الماء

ليتسامر مع أصدقائه.

للموتى أجنحة من طحالب،

الريخ الغائمة والريخ الصافية

ديكان برتان تحلقان في الأبراج

والنهار فتى جريح.

لم يبق في الهواء نسمة من قيرات

حين النقيت في كهوف النيبه. <http://Archivebeta.Sa>

لم يبق في الهواء فتات من غيمة

حين كنت تغرقين في النهر

عماق من ماء سقط فوق الجبل

فراح الوادي يتدحرج بكلايه وزناقه.

جسدك وظل يدي النفسجيتين، ميت على الضفة، ملاك برز.

غرناطة مدينة المياه تشارك في حداد الأطفال الذين فقدوا صديقهم، وتشارك

بفضل الحديث الذي أجراه الماء معهم، الماء القاتل حين يحضر كعاصفة.

والعاصفة (27) هو عنوان هذه القصيدة القصيرة لابن شهيد القرطبي (992

— 1034):

أما الرياح بجوِّ عاصم فحبلى بأخلاف الغمام

سهر الحيا برياضها فأسالها والنور نائم

حتى غدت زهراتها كالغيد باللاجج العوائم

الخ

الماء النافع وليس المدمر كما في نص لوركا، الذي ينتصر على ملذات الحياة الأخرى في قصيدة وادي ألمرية (46) لابن سفر الألميري (القرن الثاني عشر)، حين تتوجّه القصيدة إلى صديق وتساءله وتتوقّف عند تمجيد النهر: ؟؟؟؟

ذكر الله بالمرية عيشاً لست عن ذكره الجميل أحول (ابن جابر)

لله نهر سال في بطحاء أشهى وروداً من لمسى الحسناء

متعطّف مثل السوار كانه والزهر يكفقه مجر سماء (ابن خفاجة)

؟؟؟؟

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

الماء في حديث الحب مع أشجار الضفة التي يحتفي بها لوركا والمهدّدة بنذير الموت في قصيدة الأفنان:

إلى أجسام التمر

جاءت كلاب من رصاص

تنتظر سقوط الأغصان،

تكرها وحدها.

في التمر شجرة تفاح

عليها تفاحة من نشيج،

بلبل يطفئ الأمات

وديكَ برِّي يُطاردها في الغبار.

لكن الأغصان سعيدة،

الأغصان مثلنا.

لا تُفكر بالمطر ونامت،

كما لو صارت فجأة أشجاراً.

وايدان جالسان في الماء حتى الركب

ينتظران الخريف.

ظل يدفع الأغصان والجنوع

بخطوات قيل.

في أجسام التمرير

حشد من أطفال وجوههم محبوبة

ينتظرون سقوط الأغصان،

تكسررها وحدها.

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

وينتصر هذان الماء في قصيدة الجريح بالماء، حيث يتمتع الشاعر، الحيوي،

النشيط الممسوس بقوة جامحة — مذعوراً — بسحر الماء المشؤوم⁽¹⁾:

قصيدة المجروح بالماء

أريد أن أنزل إلى البحر،

أريد أن أصعد أسوار غرناطة

كي أنظر إلى القلب

(1) — اميليو غارثيا غومث ملاحظة على "ديوان تامريت" عند فديريكو غارثيا لوركا، ديوان تامريت (1913 — 1935) الطبعة المذكورة ص 57.

يخترقهُ ميخازُ الماء الغامض.

كان الطفلُ الجريحُ يئنُّ

بِنَاجٍ من صقيع.

مستنقعاتُ، وجبابُ وبنابيع

ترفع للهواء سيوفها.

آه، كم هو حنق الحبِّ وجارحُ الحدِّ،

يا له من همسٍ ليليٍّ، وموتٍ أبيض!

يا لها من صحارى نورٍ تمضي غائصةً

في رمالِ الفجر!

كان الطفلُ وحيداً والمدينةُ نائمةً في الحجرة.

فؤارةٌ تأتي من الأحلام

تحميه من جوع الطحالب.

الطفلُ والاحتضارُ وجهاً لوجه،

كانا مطيرين خضراوين متداخلين.

الطفل يتمدّد على الأرض

واحتضاره يتقوسُ.

أريدُ أن أنزلَ إلى البئرِ،

أن أموتَ ميتتِي على دفعتِ،

أريدُ أن أملأَ قلبي بالطحالبِ،

كي أرى المجروحَ بالماء.

مياه غرناطة النصرية، التي ما تزال قادرة على الفعل. المياه التي تجرح وتقتل بسلاح أبيض، بالمخازز والسيوف. مياه تجرّ الشاعر إلى الموت المفهوم كتأمل ومعرفة غرامية (انظروا وروا الجريح بالماء) لكنّ المدينة الغافية في

حـنـجـرة الطـفـل تخبئ هـذه "النافورة القادمة من الأحلام" الـتي سـتـقـذـر من التـفـكـك. الدفـقة العموديـة للماء المـخترعة من الإنسان لمـتـعته، الدفق الـذي يـسـيطر ويـسـود ألعاب الماء في قصور العرب في غرناطة، الدفـقة — الرمز للحضارة الأندلسية⁽¹⁾، يحـتـفـظ الآن بجـسـد الطـفـل من الأشـنـيات المـلـتـهـمة، يحـتـفـظ بالشـكل المتناسق للجـسـد الفـتي.

وإذا كانت الأسلحة في المـخـتـارات الأندلسية تلج الماء ("...")⁽²⁾ فإنها تنبثق منه الآن مقوية القدرة التدميرية لسيوف ابن عباد الذي يتحول إليها النهر في مديح المعتمد.

تمجيد الماء الذي يتوج فكرة لوركا ولدت عام 1922، حيث يبدو أن العمل الشعري على موضوع الماء يظهر متجذراً مع الشرق، كما يستنتج من رسالة من ملتشور فرنانديث ألماغرو إلى صديقه:

"أشعر بنفسي في هذه الأيام محتاراً. رأيت كتاباً مذهشاً مازال قيد التأليف وأود أن أولفه أنا: "أنها تأملات وصور الماء المجازية". ما الروائع العميقة والحياة التي يمكن أن يقال عن الماء! قصيدة الماء التي يحتوي عليها كتابي انفتحت في الروح. أرى قصيدة عظيمة بين الشرقية والمسيحية — الأوروبية، للماء؛ قصيدة يغني فيها بأبيات رحية أو ينثر مسروق من الحياة المتأججة وشهداء الماء؛ قصيدة حياة الماء، مع تحليل متأن جداً للدائرة المتمركزة، للانعكاس، للموسيقى الثملة وغير المختلطة بالصمت الذي تحدثه التيارات. النهر والسواقي لفتني [...] أود لو يمنحني الله ما يكفي من القوة والفرح. آه، نعم الفرحة! كي أكتب هذا الكتاب الذي يتجلى لي جلياً، كتاب التقوى هذا للذين يسافرون في الصحراء [...]"⁽³⁾

(1) — وكما تيرمن مقطوعة النافورة للشاعر الإسباني ابن رجا (القرن الثالث عشر) (رقم 10)

(2) — مهرجان في النهر (رقم 12) لقاضي شيرش ابن لويال (المتوفى عام 1284)

(3) — إلى ملتشور فرنانديث ألماغرو (7) في رسائل كاملة. أندرو. أ. أندرسون وكريستوفر مورر (ناتشرون) مدريد، كلكترا 1977 ص. 154 — 157 (155) — 156.

وكفصول متفرقة من هذا الكتاب الذي لم يُكتب قط، لكنه مفتوح في روحه ستولد قصائد محدّدة؛ يعمل الشاعر في بعضها مفجراً طاقة الماء المدمرة، مثل القصيدة التي رأيناها تَوْأ أو هذه النهاية من النشيد المسرّج (.....) أو في الطفلة الغارقة في النهر من شاعر في نيويورك، والماء في أخرى يتخذ تشكيلات متنوّعة، كما في معركة الأنهار الثلاثة التي تفتّح قصيدة الغناء العميق (1921) أو في مقطوعات باريس، ارتعاش التي تعود ل سويت الماء (1923).

لكن ما يهمّني أن أبرزه من هذه المسارة من لوركا إلى صديقه ملتشوريتو (كثيراً ما يناديه بهذا الشكل في رسائله) هو أن لوركا يرى في الماء العنصر الموحد لثلاثين مختلفين، الموضوع قادر على أن يوحد في قصيدة واحدة بين الشرق وأوروبا. إن الحضور المتواصل للماء في ديوان تماريت يدعو للتفكير بأن لوركا يستعيد في هذا الكتاب فكرته القديمة ويحقّقها، يكمل ذلك المشروع، فالتكوين الجغرافي والتاريخي – الثقافي للمدينة يقدّم أشكالاً من حياة الماضي لا تحصى، يستعيدها ويخلق بعداً سائلاً على امتداد الكتاب (من 21 قصيدة هناك عشرة تغدّي من أسباب مائية أو مكرّسة للماء).

أخيراً يمكن أن يكفي ما قلناه كي نخدس قليلاً كيف يفهم لوركا استلهامه للتراث العربي – الأندلسي. أعترف أننا نستطيع أن نستخلص مما رحنا نراه وكما قلّت في بداية هذه الدردشة، أن لوركا يتصرف من خلال الأحلام. إذا كان غونغورا برأيه يضع الأساطير على جانبها، فإنّه في ديوان تماريت وضع أسطورة غرناطة على جانبها، باحثاً عن أفق روحي للمدينة خزّنت فيها الحساسية النصرية (هذه الحساسية التي أشار إليها الشاعر في مقابلته مع إل سول) مواد وريّت نظرة الرسام. من هذا الواقع الأسطوري للمدينة يأخذ فنريكو رموزاً كثيراً جداً (ناقوس لا بلا⁽¹⁾)، باب الخمر، هيمنة الماء، اللبلاب، ديكة الريح، الصباريات) بينما رموز أخرى (بعضها رحنا نعرّ عليه) مصدرها قراءاته الشعرية أو النقدية، تجربته كطالب أداب (ولغة عربية) في غرناطة، من عيشه الموقع بغرناطة ومحيطها،

(1) — ؟؟؟؟

فهذه وتلك تشكل عناصر التراث الإسلامي وكما يتلقاها الشاعر تساهم في نظامه الشعري، النظام الذي يشكل كلاً أصيلاً وذاتياً تماماً. في هذا النظام اللوركي الجديد يكتف لوركا العناصر القادمة من ذلك التراث ويمنحها حياة وهي تشكل الآن جزءاً من عالم حيث البحث غير المنقطع عن الحب يظهر باستمرار مهدداً بترصد أو حضور الموت.

